سقوط

الدَّولةُ العُثمانيَّة

"الأسباب والتداعيات"



تأليف

د. علي محمّد محمّد الصَّلاَّبي



سقوط الدولة العثمانية

"الأسباب والتداعيات"

د. علي محمد محمد الصلّابي

مكتبة الأسرة العربية

مقدمة:

إِنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله؛ فلا مضلَّ له، ومن يضلل؛ فلا هادي له. وأشهد أن لا إِله إِلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ **[آل عمران: 102]**.

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ **[الأحزاب: 70، 71]**.

وأمَّا بعد:

يا ربِّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتَّى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

ينتسب العثمانيُّون إِلى قبيلةٍ تركمانيَّةٍ كانت عند بداية القرن السَّابع الهجري الموافق للثَّالث عشر الميلادي تعيش في كردستان، وتُزاول حرفة الرَّعي، ونتيجة للغزو المغولي على العراق ومناطق شرق آسيا الصُّغرى، والذي قاده الإمبراطور المغولي جنكيز خان، فإِنَّ سليمان شاه جدَّ عثمان هاجر مع قبيلته التركمانية من كردستان إِلى بلاد الأناضول عام 617هـ/ 1220م، فاستقرَّ في مدينة أخلاط[1].

في عام 628هـ/ 1230م توفي سليمان شاه، فخلفه ابنه الأوسط أرطغرل، والَّذي واصل تَحرُّكه نحو الشَّمال الغربيِّ من الأناضول، وكان معه حوالي مئة أسرةٍ، وأكثر من أربعمئة فارسٍ[2]. وقد شارك في المعارك الدائرة بين الجيش السلجوقي والجيش البيزنطي آنذاك، وكان أرطغرل سبباً رئيساً في تقدم جيش

---

[1] أخلاط مدينة في شرق تركيا الحاليَّة قريبة من بحيرة وان في أرمينيا.

[2] انظر: د. عبد اللَّطيف عبد الله دهيش، قيام الدَّولة العثمانيَّة، الطَّبعة الثَّانية، 1416هـ/1995م، مكتبة ومطبعة النَّهضة الحديثة، مكَّة المكرَّمة، ص (26).

المسلمين ضد النصارى، ولذلك كسب السلاجقة حليفاً قويّاً، ومشاركاً في الجهاد ضدَّ الرُّوم البيزنطيين، وقد قامت بين هذه الدَّولة النَّاشئة، وبين سلاجقة الرُّوم علاقةٌ حميمةٌ نتيجة وجود عدوٍّ مشتركٍ لهم في العقيدة والدِّين، ومن هنا كانت البداية الأولى لقيام الدولة العثمانية.

وهكذا تبلور دور الأتراك ابتداءً من السلاجقة إلى الزنكيين، ومن ثم المماليك والعثمانيين، وهؤلاء جميعاً لعبوا أدواراً محورية ومفصلية على مسرح الأحداث في التاريخ الإسلامي، ولعلّ الدّور التركي العثماني هو الأكثرُ تأثيراً وعمقاً في العالم، إذ قادوا مسيرة البناء والجهاد، واتسع سلطانهم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وجابهوا أعداء الأمة لأكثر من سبعمائة عامٍ تقريباً.

امتدّ عمر الدولة العثمانية بين عامي (698- 1342هـ/ 1299 – 1924م)، وحكَم خلالها ثمانية وثلاثون سلطاناً، أولهم مؤسسها السلطان عثمان بن أرطغرل، وآخرهم السلطان عبد المجيد بن عبد العزيز الثاني. وامتد الحكم العثماني على أوسع

رقعة من مساحة الأمصار الإسلامية وامتدوا في العمق الأوروبي والآسيوي، ولأكثر من خمسة قرون ظلت الدولة العثمانية تؤدي دورها في حماية المسلمين وبلادهم من أي اعتداءات، وغدت مركز الخلافة الإسلامية لكونها أقوى دولة إسلامية، بل من أعظم دول العالم في ذلك التاريخ.

ورغم أن الدولة العثمانية ظهرت عام 698 هـ/1299 م إلا أنها لم تكن تحظى باسم الخلافة ولا شارات الخليفة المسلم، ولم يعلن العثمانيون خلافتهم حتى تنازل لهم عنها الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله (الثالث) في القاهرة عام 923 هـ/1517م[1]، ونقله السلطان العثماني سليم الأول إلى جواره في إستانبول.

إنّ حسنات الدولة العثمانية كثيرة، فقد وسعت مساحة الأراضي الإسلامية، ويكفي أنها فتحت القسطنطينية، ووقفت في وجه

---

[1] أحمد معمور العسيري، موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر، مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى، 1417هـ، (ص313).

الغارات الصليبية على السواحل الإسلامية على جميع الجبهات، ولذلك تقدموا في أوروبا الشرقية، لتخفيف ضغط النصارى على الأندلس، وواجهت المطامع اليهودية (الصهيونية)، ومنعت اليهود من الإقامة في سيناء مصر، وحاربت الشيعة المتمثلين في الدولة الصفوية في إيران، وقد أَحيت الدولة العثمانية الجهاد الإسلامي من جديد، وكانت تمثل المسلمين قولاً وفعلاً حتى عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

ولما ضعف أمرها، اجتمعت عليها الدول الطامعة وخاصة الأوروبيين (الإنكليز والفرنسيون والروس)، فأخذوا يقتطعون من الدّولة جزءاً بعد آخر حتّى سقطت صريعة، فزالت آخر خلافة إسلاميّة جامعة للمسلمين في العالم[1].

---

[1] العسيري، موجز التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص 313، 314.

التعريف بالكتاب وأصله:

يُعدُّ هذا الكتاب "سقوط الدّولة العثمانيّة...الأسباب والتداعيات" جزءاً من كتاب: "الدّولة العثمانيّة.. عوامل النهوض وأسباب السقوط"، وقد انتهيت منه قبل عشرين عاماً، وقد جاء في (582) صفحة من القطْع الكبير من طبعة "دار النشر والتوزيع الإسلامية" عام 2001م، ثم تلتها عدة طبعات أخرى باللغة العربية، كما أنه ترجم للُغاتٍ أجنبيّة متعددة منها التركيّة والفارسيّة والكرديّة والبنغاليّة والإندونيسيّة والألبانيّة وغيرها.

ومن أهم المصادر والمراجع التي اعتمدتُّ عليها في كتابي:

1. "الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّةٌ مفترىً عليها"، لمؤلفه الدكتور عبد العزيز الشِّنَّاوي في ثلاثة مجلَّدات ضخمةٍ، وبرغم الجهد الَّذي بذله، والموضوعيَّة الَّتي اتَّسم بها هذا العمل في أغلبه، إلاَّ أنَّه لم يعالج جميع جوانب التَّاريخ العثماني.

2. "العثمانيُّون في التاريخ والحضارة"، للمؤرخ الكبير للدكتور محمد حرب، وهو من المراجع الرئيسية في التاريخ العثماني.

3. "صحوة الرَّجل المريض"، أو "السُّلطان عبد الحميد"، للدكتور موفق بني المرجة، وهو من الأعمال القَيّمة في تاريخ الدّولة العثمانية، واستطاع هذا الكتاب أن يُبيِّن كثيراً من الحقائق المدعومة بالوثائق والحجج الدَّامغة.

4. "الشَّرق الإِسلامي في العصر الحديث"، للدكتور حسين مؤنس.

5. "التَّصوُّف في مصر إِبَّان العصر العثماني"، د. توفيق الطَّويل.

6. "قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين"، للدكتور زكريَّا سليمان بيُّومي.

7. "عقيدة ختم النُّبوَّة بالنُّبوَّة المحمَّدية"، للدكتور عثمان عبد المنعم.

وأردت أن أوضح الهيكلية العامة لأصل الكتاب (الدولة العثمانية؛ عوامل النهوض وأسباب السقوط) حتى يتكوّن لدى القارئ تصورٌ دقيقٌ عن فصوله ومباحثه، وفهمٌ لمجمل الأحداث والتطورات التاريخية التي مرت بها الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى سقوطها.

وقد قسَّمت الكتاب الأصل (الدولة العثمانية؛ عوامل النهوض وأسباب السقوط) إلى مدخلٍ، وسبعة فصولٍ، ونتائج عامة للكتاب، وذلك على النحو الآتي:

المدخل: المناهج المعاصرة في كتابة تاريخ الدولة العثمانيَّة.

الفصل الأوَّل: جذور الأتراك، وأصولهم

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأَول: أصل الأتراك، وموطنهم.**
- **المبحث الثاني: قيام الدَّولة السَّلجوقيَّة.**
- **المبحث الثالث: نهاية الدَّولة السَّلجوقيَّة.**

الفصل الثَّاني: قيام الدَّولة العثمانيَّة وفتوحاتها

ويشتمل على ستَّة مباحث:

- **المبحث الأوَّل: عثمان مؤسِّس الدَّولة العثمانيَّة.**
- **المبحث الثَّاني: السُّلطان أورخان بن عثمان.**
- **المبحث الثَّالث: السُّلطان مراد الأوَّل.**
- **المبحث الرَّابع: السُّلطان بايزيد الأوَّل.**
- **المبحث الخامس: السُّلطان محمَّد الأوَّل.**
- **المبحث السَّادس: السُّلطان مراد الثَّاني.**

الفصل الثالث: محمد الفاتح وفتح القسطنطينيَّة

ويشتمل على سبعة مباحث:

- **المبحث الأوَّل: السُّلطان محمَّد الفاتح.**
- **المبحث الثَّاني: الفاتح المعنوي للقسطنطينية (الشَّيخ آق شمس الدِّين).**

- المبحث الثالث: أثر فتح القسطنطينيَّة على العالم الأوربِّي، والإِسلامي.
- المبحث الرَّابع: أسباب فتح القسطنطينيَّة.
- المبحث الخامس: أهم صفات محمَّد الفاتح.
- المبحث السَّادس: شيءٌ من أعماله الحضاريَّة.
- المبحث السَّابع: وصية السُّلطان محمَّد الفاتح لابنه.

الفصل الرَّابع: السَّلاطين الأقوياء بعد محمَّد الفاتح

ويشتمل على تسعة مباحث:

- المبحث الأوَّل: السَّلطان بايزيد الثَّاني.
- المبحث الثَّاني: السُّلطان سليم الأوَّل.
- المبحث الثَّالث: السُّلطان سليمان القانوني.
- المبحث الرَّابع: الدَّولة العثمانيَّة، وشمال أفريقيا.
- المبحث الخامس: المجاهد الكبير حسن آغا الطُّوشي.

- المبحث السادس: المجاهد حسن خير الدِّين بربروسة.
- المبحث السَّابع: سياسة صالح رايس.
- المبحث الثَّامن: سياسة حسن بن خير الدِّين في التَّضييق على الإِسبان.
- المبحث التَّاسع: المتوكِّل على الله ابن عبد الله الغالب السَّعدي.

الفصل الخامس: بداية اضمحلال الدَّولة العثمانيَّة

ويشتمل على أحد عشر مبحثاً:

- المبحث الأوَّل: السُّلطان سليم الثَّاني.
- المبحث الثَّاني: السُّلطان مراد الثَّالث.
- المبحث الثَّالث: السُّلطان محمَّد خان الثَّالث.
- المبحث الرَّابع: السُّلطان أحمد الأوَّل.
- المبحث الخامس: بعض السَّلاطين الضِّعاف.

- **المبحث السَّادس: السُّلطان سليم الثَّالث.**
- **المبحث السَّابع: جذور الحملة الفرنسيَّة الصَّليبيَّة.**
- **المبحث الثَّامن: السُّلطان محمود الثَّاني.**
- **المبحث التَّاسع: السُّلطان عبد المجيد الأوَّل.**
- **المبحث العاشر: السُّلطان عبد العزيز.**
- **المبحث الحادي عشر: السُّلطان مراد الخامس.**

الفصل السَّادس: عصر السُّلطان عبد الحميد الثاني

ويشتمل على ثمانية مباحث:

- **المبحث الأوَّل: السُّلطان عبد الحميد.**
- **المبحث الثَّاني: الجامعة الإِسلاميَّة.**
- **المبحث الثَّالث: السُّلطان عبد الحميد واليهود.**
- **المبحث الرَّابع: السُّلطان عبد الحميد، وجمعية الاتِّحاد، والترقِّي.**

- **المبحث الخامس: الإِطاحة بحكم السُّلطان عبد الحميد الثاني.**

الفصل السابع: حكم الاتحاديِّين، ونهاية الدَّولة العثمانيَّة.

الفصل الثامن: بشائر إِسلاميَّة في تركيا العلمانيَّة.

الفصل التاسع: أسباب سُّقوط الدولة العثمانية.

الخاتمة

إن الفصل التاسع والأخير هو الكُتيّب الذي بين أيدينا، والذي يهتم بإِبراز أسباب سقوط الدولة العثمانية وتداعيات ذلك الحدث المدَوّي، في إطار السنن الربانيّة في التغيير والتبدّل الحضاري، والرؤية القرآنيّة عن أسباب زوال الأمم وانهيار الإمبراطوريّات وقيام الحضارات وتبدلها، وبالتالي يتبيِّن للقارئ أنَّ أسباب السُّقوط عديدةٌ منها:

أولاً: انحراف الأمَّة عن مبادئ وأصول دينها.

ثانياً: انتشار الفرق الضَّالة المحسوبة على الإِسلام.

ثالثاً: غياب القيادة الرَّبَّانيَّة الذي كان سبباً في ضياع الأمَّة.

رابعاً: الظلم والاستبداد الذي انتشر في الدولة العثمانية.

خامساً: الاختلاف والفرقة التي حدثت نتيجة انعدام القيادة الربانيّة.

سادساً: الانغماس في الشهوات، والتَّرف، وشدَّة الاختلاف، والتَّفرُّق، وما ترتَّب عن الابتعاد عن شرع الله من آثار خطيرة، كالضَّعف السياسيِّ، والحربيِّ، والاقتصاديِّ، والعلميِّ، والأخلاقيِّ، والاجتماعيِّ، ففقدت الأمَّة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها؟ واستُعمرت، وغُزيت فكريَّاً نتيجةً لفقدها شروط التَّمكين، وابتعادها عن أسبابه المادِّيَّة، والمعنوية، وجهلها بسنن الله في نهوض الأمم، وسقوطها.

قال تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96].

كان في ابتعاد سلاطين الدَّولة العثمانيَّة الأواخر عن شرع الله تعالى آثاره على الأمَّة الإِسلاميَّة؛ فتجد الإِنسان المنغمس في حياة المادَّة، والجاهليَّة مصاباً بالقلق، والحيرة، والخوف، والجبن، يحسب كلَّ صيحةٍ عليه، يخشى من النَّصارى، ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عزٍّ، وشموخٍ، واستعلاءٍ، وإِذا تشجَّع في معركة من المعارك؛ ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي في قلبه، وأصبح في ضنكٍ من العيش: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 124].

أُصيبت الشُّعوب الإِسلاميَّة في مراحل الدَّولة العثمانيَّة الأخيرة بالتَّبلُّد، وفقد الإِحساس بالذَّات، وضعف ضميرها الرُّوحي، فلا أمرٌ بمعروفٍ، ولا نهيٌ عن منكرٍ، وأصابهم ما أصاب بني إِسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 78، 79].

إِنَّ أيَّ أمَّةٍ لا تُعظِّم شرع الله أمراً ونهياً تسقط كما سقط بنو إسرائيل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلا والله لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر، ولتأخُذُنَّ على يد الظَّالم، ولتأطرُنَّه على الحقِّ أطراً، ولتقصُرُنَّهُ على الحقِّ قصراً، أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكم بعضاً، ثمَّ لَيَلْعَنَنَّكم كما لعنهم!»[1].

إِنَّ من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدِّين، والتَّاريخ: أنَّه إذا عُصي الله تعالى ممَّن يعرفونه سلَّط الله عليهم مَنْ لا يعرفونه؛ ولذلك سلَّط الله النَّصارى على المسلمين في الدَّولة العثمانيَّة.

إِنَّ الذُّنوب الَّتي يهلك الله بها الدَّولة، ويعذِّب بها الأمم قسمان:

- معاندة الرُّسل، والكفر بما جاؤوا به.

- كفر النِّعم بالبطر، والأشر، وغمط الحقِّ، واحتقار النَّاس، وظلم الضُّعفاء، ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق، والفجور، والغرور بالغنى والثَّروة، فهذا كلُّه من الكفر بنعمة الله، واستعمالها

---

[1] سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق، عزَّت عبيد الدَّعاس، حمص، النَّاشر: محمَّد السَّيد، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف، رقم الحديث (4670).

فِي غير ما يرضيه من نفع النَّاس، والعدل العامِّ. والنَّوع الثَّاني من الذُّنوب هو الَّذي مارسه أواخر سلاطين الدَّولة العثمانيَّة، وأمراؤهم[1].

لم أتناول في هذا الكتيّب جميعَ أسباب سقوط الدولة العثمانيّة وتداعيات ذلك، بل ركّزت على الأسباب الجوهريّة، والتي كانت سبباً رئيسيّاً ومباشراً في سقوط الدولة العثمانيّة، والتي نستفيد من ذكرها معانٍ ودروساً وعِبراً في حياتنا الراهنة، وتعاملنا مع حوادث الزمن.

وقد انتهيت من اختصار وترتيب هذا الكُتيّب يوم السبت في تمام الساعة السادسة والنصف مساءً بتوقيت مكة المكرمة، وذلك بتاريخ 1 محرم 1444هـ/ 30 يوليو 2022م.

ولا يسعني في مرحلة الانتهاء من هذا الكُتيب إلا أن أقف بقلبٍ خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً

---

[1] انظر: علي محمَّد الصَّلابي، دولة الموحِّدين، دار البيارق، عمَّان ـ الأردن، 1998م، الطبعة الأولى، ص (170).

بفضله وكرمه ومتبرئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفّق، فلو تخلى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلّد مني العقل، وغابت الذاكرة، ويَبست الأصابع، وجفت العواطف، وتحجَّرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان.

اللهم بَصّرني بما يُرضيك، واشرح صدري، وجنبني -اللهم- ما لا يرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك يا الله بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أن تثبتني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا العمل.

اللهم لك الحمد على فضلك ومنّتِك وكرمك، اللهم اجعله لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، وتقبله منا قبولاً حسناً، واطرح فيه البركة والفائدة والنفع العظيم، كما أرجو من كل من يطّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من الدعاء، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ **[النمل: 19]**.

والحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

د. عَلي محمَّد محمَّد الصَّلَّابيّ

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

1 محرم 1444هـ/ 30 يوليو 2022م

المبحث الأول: انحراف الأمة عن المفاهيم الصحيحة للدين الإسلامي سبباً رئيسياً من أسباب سقوط الدولة العثمانية:

وقد أدّى ذلك بالطبع إلى مشكلة كبيرة في التعامل مع بعض المفاهيم الكبرى في الإسلام، منها:

أولاً: مفهوم الولاء والبراء:

كانت الدَّولة الإسلامية في عصورها المتقدِّمة عاملةً بقول الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28].

وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51].

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أوثق عُرا الإِيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحبُّ في الله، والبغض في الله)[1].

أمَّا في عصورها المتأخِّرة وخصوصاً في القرنين الثَّالث عشر، والرَّابع عشر الهجريِّين؛ فقد أصيب مفهوم الولاء والبراء بالانحراف نتيجةً للجهل الذَّريع؛ الَّذي خيَّم على أغلب أقاليم الدَّولة العثمانيَّة، والبلدان الإِسلاميَّة، ولغياب العلماء الرَّبَّانيِّين الَّذين ينيرون للأمَّة دروبها، ويأخذون بزمامها إِلى الطَّريق المستقيم. وكان الحكَّام، والسَّلاطين يصانعون الأعداء من الكافرين، ويتولَّونهم من دون المؤمنين؛ حيث كان هؤلاء الكافرون على جانبٍ عظيمٍ من القوَّة المادِّيَّة، والمسلمون في المقابل على العكس تماماً من الضَّعف؛ فقد

---

[1] محمد بن ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1420هـ، (343/2 ح 2536).

ساعد الواقع الأليم الَّذي كان يعيشه المسلمون على زعزعة هذه العقيدة[1].

فالواقع المليء بكلِّ صور الانحطاط من فقرٍ، وضعفٍ، وجهل، ومرضٍ، وخرافةٍ في مقابل الواقع الأوربي مثلاً كان عاملاً من عوامل إضعاف عقيدة الولاء، والبراء، ومع ذلك لا يجوز لنا أبداً أن نبرِّر لهؤلاء المنبهرين انبهارهم بواقع الكافرين؛ إذ لو كان إيمانهم صادقاً، وعقيدتهم راسخةً؛ لم تجرفهم أهواء الكافرين، ولم تتقاذفهم أمواج المادَّة والقوَّة، كما كان حال الجيل الأوَّل ـ رضي الله عنهم ـ الَّذي استعلى بدينه، وعقيدته على قوَّة الكافرين، وجبروتهم حتَّى في وقت الهزيمة، ولحظة الفشل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ **[آل عمران:139]**.

ومع هذا، فإنَّ هذه العقيدة على مستوى أبناء الأمَّة الإسلامية، كانت متوهِّجةً في النُّفوس، مستقرَّةً في العقول؛ فقد كان المسلم

---

[1] انظر: علي بن نجيب الزهراني، الانحرافات العقديَّة، والعلميَّة في القرنين الثَّالث عشر، والرَّابع عشر الهجريّين، وآثارهما في حياة الأمَّة، دار طيبة مكَّة، دار آل عمَّار، الشَّارقة، الطَّبعة الثَّانية، 1418هـ/1998م، (142/1).

في الشَّمال الإِفريقي يحبُّ أخاه المسلم في الشَّام، ويبغض جاره النَّصرانيَّ، وهكذا في كلِّ الأقطار، والبلدان. وكان المسلم يحسُّ بإِخوانه في كلِّ مكانٍ، وبما يقع لإِخوانه في الدِّين من اعتداءاتٍ، ونكباتٍ، ويشارك بعضهم مع إخوانهم لجهاد المعتدين، والنَّفير في سبيل الله، فكانوا إِلى حدٍّ كبيرٍ كما وصفهم الرَّسول صلى الله عليه وسلم: "كالجسد الواحد إِذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر، والحمَّى"[1].

وقد بيَّنَّا – في أصل هذا الكتيّب- مناصرة مسلمي الحجاز، وليبيا لإِخوانهم في مصر عندما احتلَّها الفرنسيُّون في عام 1213هـ/ 1798م، وكيف تفاعل المسلمون مع دعوة السُّلطان عبد الحميد الثَّاني إِلى فكرة الجامعة الإِسلاميَّة، ودعوته لاتِّحاد المسلمين في العالم في مقابل التَّسلُّط الأوربيِّ والرُّوسي، وغيرهما، وقد أثمرت هذه الدَّعوة إِلى حدٍّ كبيرٍ، وتجاوب معها المسلمون في

---

[1] محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، دار طوق النجاة بيروت مصورة عن الطبعة السلطانية، 1422هـ، كتاب الأدب، باب رحمة النَّاس والبهائم، رقم (6011)، 438/10.

كلِّ مكانٍ على اختلاف لغاتهم، وألوانهم، وبلادهم، وليس أدلَّ على ذلك من تبرُّع المسلمين في أقطار العالم لإنشاء خطِّ سكَّة حديدٍ بين بغداد والحجاز بثلث نفقات الخطِّ. إنَّ الشُّعور بالتَّرابط الدِّيني بين المسلمين كان قويَّاً على الرَّغم من كثرة الانحرافات؛ الَّتي توحي بالفرقة والاختلاف، كالمذاهب الكلاميَّة، والفقهيَّة، وبعض الأفكار المحسوبة على الدين الحنيف، وكانت عقيدة الولاء، والبراء سليمةً إلى حدٍّ كبيرٍ في نفوس العامَّة، لذلك كبر على أعداء الإسلام من اليهود، والنَّصارى أن يرَوا في تلك العقيدة جداراً صلباً، وحاجزاً قويَّاً يقف أمام مخطَّطاتهم، ومحاولاتهم في القضاء على المسلمين، ودينهم، ولذا أخذوا يعملون على تحطيم ذلك الجدار، وتذويب ذلك الحاجز عن طريق صنائعهم، وعملائهم في البلاد الإسلاميَّة، وفي الدَّولة العثمانيَّة ممَّن بأيديهم مقاليد الأمور من السَّلاطين، والباشوات، كما حدث مع السُّلطان العثماني محمود الثَّاني المتوفَّى عام 1839م الَّذي تزعَّم حركة الإصلاح المقلِّدة للمنهج الأوربيِّ، حيث عمل على مسخ عقيدة الولاء،

والبراء، وحاول طمسها في النُّفوس، ويتجلَّى هذا الاتِّجاه الخطير في قول السُّلطان نفسه:

(.. إِنِّني لا أريد ـ ابتداءً من الآن ـ أن يميَّز المسلمون إِلا في المسجد، والمسيحيُّون إِلا في الكنيسة، واليهود إِلا في المعبد، إِنِّي أريد ما دام الجميع يتوجَّه نحوي بالتَّحيَّة أن يتمتَّع الجميع بالمساواة في الحقوق، وبحماية الأبويَّة، ومن هنا نعمت المسيحيَّة وغيرها في الدَّولة في ذلك العصر بحرِّيَّةٍ واسعة النِّطاق)[1].

وفي هذا العصر انتشرت المدارس اليونانيَّة، والأرمنيَّة، والكاثوليكيَّة انتشاراً واسعاً بفضل رعاية السُّلطان، وتشجيعه[2]. وقد ثار رجال إِحدى الحاميات العثمانيَّة ضدَّ احتمال إِلزامهم أن يضعوا على

---

[1] انظر: د. محمد البحراوي، حركة الإِصلاح في عصر السُّلطان محمود الثَّاني، دار التُّراث، القاهرة، الطَّبعة الأولى 1398هـ/1978م، ص (214). وهذه الحرِّيَّة الَّتي نعموا بها استغلُّوها في التآمر على الدَّولة وعلى المسلمين.

[2] المصدر السَّابق نفسه، ص (214).

صدورهم الحزامين المتقاطعين على شكل صليب على النَّسق النِّمساوي، وطرَد الثُّوَّارُ الباشا المرسل من قبل السُّلطان[1].

وقد سمح السُّلطان لرعاياه المسيحيِّين بارتداء الطَّربوش بدلاً من القَلَنْسُوة القديمة، وبذلك خلَّصهم من الرَّمز المِمِّيز لهم، وكان لذلك رنَّة فرحٍ شديدٍ عندهم، وقد حاول فرض الطَّربوش الأحمر على العلماء بدلاً من العمامة، فلمَّا أبوا عليه ذلك تراجع مغطِّياً موقفه بإِعلان الجهاد ضدَّ الرُّوس[2].

والأدهى من ذلك ما (حدث من استعانة الدَّولة العثمانيَّة بضبَّاط دانوا بالولاء لروسيا من قبل، وظلَّت الدَّولة غافلةً عن هذه الحقيقة، وبالتَّالي كان لروسيا عيونٌ في جيش السُّلطان الجديد، تزوِّدها بأدقِّ المعلومات والخطط)[3]، وكم من هزيمةٍ ساحقةٍ تلقَّتها

---

[1] المصدر السَّابق نفسه، ص (258).

[2] المصدر السَّابق نفسه، ص (261)

[3] المصدر السَّابق نفسه، ص (247).

الدَّولة العثمانيَّة من روسيا، وكان من أسبابها تسرُّب المعلومات الهامَّة عن طريق هؤلاء.

هذا مثالٌ بارزٌ على ضعف عقيدة الولاء، والبراء لدى بعض السَّلاطين العثمانيِّين، وعدم الاهتمام بها.

أمَّا ولي مصر محمَّد علي باشا، فقد فُتن بالغرب، واتبع سياستهم، وسار على خطاهم، وتقلد بتقاليدهم، وما فتئ خلال حكمه الطَّويل الَّذي بلغ خمسةً وأربعين عاماً تقريباً يتولَّى الكفَّار، ويصانعهم، ويُعلي من شأنهم، ويقوم باتِّباعهم، والاقتباس من نُظمهم، وقوانينهم، والسَّير في ركابهم، مع شدَّة بطشه، وتنكيله بالمسلمين، واستهانته بهم، فقد تخطَّى عقيدة الولاء، والبراء، وضربها في الصَّميم؛ ليرضي أسياده الغربيين[1]، وليُخضع أمَّته وشعبه المسلم للمخطَّطات التي هدفها نشر ثقافة التغريب، ومدّ نفوذ الطامعين الغربيين الفكري والسياسي داخل الدولة العثمانية.

---

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (165/1).

وفتح البلاد على مصراعيها لأفواج النَّصارى الصَّليبيِّين للبحث، والتَّنقيب، واكتشاف الآثار، ودراسة الأماكن دراسةً دقيقةً، بل ومساعدته لهم، وتذليله الصِّعاب في طريقهم[1].

قام الأوروبيون، في ظل حكم محمد علي باشا وأبنائه لمصر، بدراسة مراكز الثَّروة، ودراسة المواقع دراسةً تخطيطيَّةً، ممَّا أفادهم ـ ولا شكَّ ـ في احتلال مصر فيما بعد عام 1882 م خصوصاً إِذا علمنا: أنَّ كثيراً من هؤلاء المنقِّبين كانوا من الإِنجليز، وكانت هناك أهدافٌ أخرى لم يفطن لها كثيرٌ من الباحثين، ونترك الحديث لأحد المستشرقين في كتابه: (الشَّرق الأدنى، مجتمعه، وثقافته): (إِنَّنا في كلِّ بلدٍ إِسلاميٍّ دخلناه نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإِسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتدَّ

(1) المصدر السَّابق نفسه، (170/1).

مسلمٌ إِلى عقائد ما قبل الإِسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإِسلام، وبين تلك الحضارات...)[1].

وعلى ضوء ما سبق من أهداف نستطيع أن نفسِّر اهتمامات هؤلاء النَّصارى بشقِّ البلاد طولاً، وعرضاً، وإِنفاقهم الأموال الطَّائلة في كشف الآثار، وتعريتها بدءاً بالفرنسيِّين، ثمَّ الإِنجليز الَّذين ساروا على خطٍّ واحدٍ في تنفيذ هذه الأهداف الخبيثة[2].

يقول الأستاذ محمَّد قطب: (...ولكن المخطَّط الخبيث الَّذي حمله الصَّليبيُّون معهم، وهم يجوسون خلال الدِّيار كان هو نبش الأرض الإِسلاميَّة؛ لاستخراج الحضارات، تمهيداً لاقتلاعهم نهائيّاً من الولاء للإِسلام)[3].

---

(1) انظر: محمَّد قطب، واقعنا المعاصر، الطَّبعة الثَّانية، 1408هـ/1988م، مؤسَّسة المدينة المنوَّرة، ص (202).

(2) انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (171/1).

(3) انظر: قطب، واقعنا المعاصر، ص (202).

وقدَّم محمَّد علي خدمةً لمخطَّطات الأعداء بضرب الاتِّجاه الإِسلاميِّ السَّلفي في الجزيرة العربيَّة تظاهراً بطاعة السُّلطان العثماني، وكان الأخير قد فقد السَّيطرة على بلاد الحرمين الشَّريفين، واتَّخذ من ذلك ستاراً لتنفيذ مخطَّطات بريطانيا، وفرنسا اللَّتين رأتا الوجود السُّعوديَّ يشكِّل خطراً على مصالحهما، خصوصاً في الخليج العربيِّ، والبحر الأحمر[1]. وقد كان على رأس تلك الجيوش الَّتي وجَّهها محمَّد علي ضبَّاطٌ فرنسيُّون، وبعض النَّصارى[2].

وقد سُرَّت فرنسا بذلك العمل الحربي المدمِّر، وكذلك بريطانيا، وأبلغت فرنسا (محمَّد علي) عن طريق قنصلها في القاهرة: أنَّها ممنونةٌ ممَّا رأته من اقتداره على نشر أعلام التَّمدُّن في البلاد الشَّرقيَّة[3].

---

(1) انظر: د. زكريَّا سليمان بيُّومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين، الطَّبعة الأولى 1411هـ/1991م، عالم المعرفة، ص (189).

(2) المصدر السَّابق نفسه، ص (187).

(3) انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (174/1).

وضايق محمَّد علي باشا العلماء، والفقهاء، والأزهريِّين في لقمة العيش، وسيطر على الأوقاف التَّابعة للأزهر، وضمَّها للدَّولة، وبالتَّالي أحكم السَّيطرة على المشايخ القائمين على التَّعليم من رجال الأزهر[1]، وحتَّى الكتاتيب؛ الَّتي تعلِّم القرآن الكريم، والعلوم الأوَّليَّة للناشئة من أبناء المسلمين، لم تنجُ عن غائلة محمَّد علي؛ فقد ذكر الجبرتي – رحمه الله –: أنَّ كثيراً من المكاتب أغلقت بسبب تعطُّل أوقافها، واستيلاء محمَّد علي عليها[2].

وذكر الشَّيخ محمَّد عبده: أنَّ ما أبقاه محمَّد علي من أوقاف الأزهر، والأوقاف الأخرى لا يساوي جزءاً من الألف من إيرادها، وأنَّه أخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي إلى اليوم في عهد الشَّيخ محمَّد عبده لكانت غلَّته لا تقلُّ عن نصف مليون جنيه في السَّنة، وقرَّر له بذلك ما يساوي أربعة الاف جنيه في السَّنة، بينما

---

[1] انظر: بيومي، قراءةٌ جديدةٌ في تاريخ العثمانيِّين، مرجع سابق، ص (179).

[2] انظر: عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التَّراجم، والأخبار، دار فاس– بيروت، (478/3).

نجده قد اندفع نحو التَّغريب، وإرسال البعثات كما ذكرنا في البحث.

إنَّ هذه السِّياسة التَّدميريَّة الَّتي نهجها محمَّد علي، والَّتي فُرضت قهراً على المسلمين كانت تنفيذاً للمخطَّط الصَّليبي؛ الَّذي عجزت الحملة الفرنسيَّة عن تنفيذه بسبب اضطرارها للرَّحيل، وهو أمرٌ أكَّده المؤرّخ الإِنجليزي أرنولد توينبي في قوله: (كان محمَّد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونيَّة إِلى حقائق فعَّالة في مصر)[1].

لا شكَّ أنَّ محمَّد علي باشا كان صنيعةً من صنائع الغرب، وعميلاً من عملائهم، سواءٌ كان وصوله إِلى سدَّة الحكم نتيجة تخطيطٍ من أعداء الأمة، وعلى الأخصِّ تخطيطٍ فرنسيٍّ، أو كان نتيجةً لدهاء محمَّد علي، ومكره، وثقافته، أو كان للأمرين معاً، فإِنَّ هذا كلَّه لا يغيِّر من الأمر شيئاً، ولا ينفي أنَّ محمَّد علي قد احتوته الدُّول الغربيَّة، وأخذت تقوده في ركابها، وخصوصاً: أنَّ فيه

[1] انظر: بيومي، قراءةٌ جديدةٌ في تاريخ العثمانيِّين، مرجع سابق، ص (182).

من الصِّفات، والخلال، الَّتي ينشدها المستعمرون دائماً، كجنون العظمة، وغلظة القلب، وفظاظة الطَّبع، ورقَّة الدِّيانة، أو عدمها[1].

وقد عمل محمَّد علي طوال سنوات حكمه على القضاء على عقيدة الولاء، والبراء، واستخدم سياسة العسف، والإرهاب، والتَّنكيل في أنحاء مملكته؛ لينتزع هذه العقيدة من قلوب المسلمين، ويقضي عليها قضاءً مبرماً[2].

ومع عظم الهالة الَّتي أحيط بها محمَّد علي من قبل المستشرقين، ومن اقتفى أثرهم من المؤرِّخين القوميِّين، والعلمانيِّين حول ما قام به من إصلاحاتٍ في كثيرٍ من المجالات التَّعليميَّة، والاقتصاديَّة، والعسكريَّة، إلا أنَّه من الثَّابت من سيرة محمَّد علي: أنَّه يكره مسلمي مصر، ويحتقرهم، ويزدريهم أيَّما ازدراء، وليس أدلَّ من ذلك إلاَّ قوله: (ثقوا: أنَّ قراري لا ينبع من عاطفةٍ دينيَّةٍ، فأنتم

---

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (181/1).

[2] المصدر السَّابق نفسه، (181/1).

تعرفوني، وتعلمون أنَّني متحرِّرٌ من هذه الاعتبارات؛ الَّتي يتقيَّد بها قومي.. وقد تقولون: إنَّ مواطنيَّ حميرٌ، وثيرانٌ، وهذه حقيقةٌ أعلمها)[1].

وقد كان محمَّد علي باشا متواطئاً مع الفرنسيِّين عند احتلالهم الجزائر، حتَّى لقد همَّ - بعد أن جاءته الأوامر بالطَّبع - أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمةً للفرنسيِّين، وعملاً لحسابهم الخاصِّ إلا أنَّ أسياده رفضوا تلك الفكرة الَّتي تهيِّج المسلمين، وتثيرهم بعد أن ينكشف أمر عميلهم، لذا بادروا إلى إلغائها، واكتفى محمَّد علي بتزويد الفرنسيِّين في الجزائر بالغلال[2].

ويذهب الدُّكتور سليمان الغنَّام إلى أنَّ بريطانيا لـمَّا علمت بعزم محمَّد علي؛ ثارت ثائرتُها، وهدَّدته بنسف أسطوله إنْ هو فكَّر في ذلك.

---

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (188/1).

[2] انظر: حسين مؤنس، الشَّرق الإسلاميُّ، مطبعة حجازي، القاهرة، الطَّبعة الثَّانية، 1938م، ص (311).

هذه وقفةٌ مع باشا من باشوات الدَّولة العثمانيَّة عمل على إِضعاف عقيدة الولاء والبراء لدى الأمَّة المسلمة بشكلٍ مباشرٍ، تمثَّل في سياسة العسف، والإِرهاب، وبشكلٍ غير مباشرٍ اتَّخذ التَّغريب له مساراً، لقد استحقَّ محمَّد علي أن يكون رائد التَّغريب في العالم الإِسلامي العربيِّ التَّابع للدَّولة العثمانيَّة، وسار أولاده، وأحفاده من بعده على نفس السِّياسة، فقد ظلُّوا يتعهَّدون غراس التَّغريب، والعلمنة، ويسيرون في نفس الطَّرق، ويتسابقون إِلى كسْب ولاء الغرب، وخطْب ودِّه[1].

إِنَّ فئة من سلاطين الدَّولة العثمانيَّة وباشواتها أمعنوا في موالاة الكافرين، وألقوا إِليهم بالموَّدة، وركنوا إِليهم، واتَّخذوهم بطانةً من دون المؤمنين، وعملوا على إِضعاف عقيدة الولاء، والبراء في الأمَّة، وأصابوها في الصَّميم، وبذلك تميَّعت شخصيَّة الدَّولة العثمانيَّة، وهويَّتها، وفقدت أبرز مقوِّماتها، وسهل بعد ذلك على أعدائها أن يحتووها، ثمَّ مزَّقوها شرَّ ممزَّق.

---

[1] انظر: مؤنس، الشَّرق الإِسلامي في العصر الحديث، مرجع سابق، (189/1).

ثانياً: مفهوم العبادة:

إنَّ من شروط التَّمكين الَّتي قام بها العثمانيُّون الأوائل تحقيق مفهوم العبوديَّة الشَّامل كما فهموه من القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة، وكما أخذوه عن السَّلف الصَّالح، رضوان الله عليهم.

ففهموا أنَّ الدِّين كلَّه عبادةٌ، لذا كانت العبادة بمفهومها الواسع هي الغاية الحقيقيَّة الَّتي خلق الله الخلق لأجلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ **[الذاريات:56]**، وكانت هي دعوة الرُّسل جميعاً من لدن نوح عليه السَّلام إلى نبيِّنا محمَّد صلى الله عليه وسلم لأقوامهم: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾**[الأعراف: 59]**.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّة رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ **[النحل:36]**.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ **[الأنبياء: 25]**.

لقد فهم العثمانيُّون الأوائل العبادة بمفهومها الشَّامل الَّذي أراده الله عزَّ وجلَّ، وهي أن تشمل كلَّ نشاطٍ في حياة الإنسان: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ **[سورة الأنعام:162]**.

فأصبحت حياتهم حافلةً بالأعمال العظيمة من تقوية الدَّولة المسلمة، وتربيةٍ دائمةٍ لرعاياها، وتعليم القرآن، والعلم، وجهاد الكافرين، والمنافقين، وقيامٍ على أمور المسلمين، وتنفيذٍ لأهداف التَّمكين، ولذلك نجد العلامة الشَّيخ شمس الدِّين آق يجمع بين دوره في توجيه الأمَّة، وتعليمها، وتوظيف علم النَّبات، والطِّبِّ، والصَّيدلة لمصلحة المسلمين، لقد كان هذا الشَّيخ يتعبَّد المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بالعلم الدِّينيِّ، والدُّنيويِّ، وكانت له بحوثه في علم النَّبات، ومعالجة الأمراض المعدية، وألَّف في ذلك كتاباً، واهتمَّ أيضاً بمعالجة مرض السَّرطان، وكان مجاهداً في صفوف جيش محمَّد الفاتح، مربِّياً لعوامِّ العثمانيِّين على طاعة الله تعالى، ومهتمَّاً بتزكيتهم، وآمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر، وكان نعم المربِّي، والنَّاصح لمحمَّد

الفاتح، فبعد أن فتحت القسطنطينيَّة جاء محمَّد الفاتح يدخل في الخلوة مع الشَّيخ، فمنعه الشَّيخ شمس الدِّين، وقال لمحمَّد الفاتح: (إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذَّةً تسقط عندها السَّلطنة من عينيك، فتختلُّ أمورها، فيمقت الله علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة، فعليك أن تفعل كذا، وكذا، وذكر له شيئاً من النَّصائح).

إنَّ هذا الفهم الجميل هو الَّذي سارت به الدَّولة العثمانيَّة عندما كان للعلماء الرَّبَّانيِّين صدارة التَّوجيه، والإرشاد، والتَّعليم، ولذلك نجد نهوضاً شاملاً في عصر السُّلطان محمَّد الفاتح في جميع شؤون الحياة التَّربويَّة، والسِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والعسكريَّة، والاجتماعيَّة، والعلميَّة. كلُّ ذلك النُّهوض مستمدٌّ من مفهوم العبوديَّة الشَّامل الَّذي فهموه من الشَّريعة الغرَّاء، ولذلك نجد في الدَّولة العثمانيَّة في عصر مجدها، وقوَّتها تفوُّقاً في كلِّ المجالات، فمثلاً في الجغرافيا يظهر اسم الرَّيِّس بيري في زمن السُّلطانين سليم الأول، وسليمان

القانوني، وكان الرَّيِّس بيري قائداً للبحريَّة العثمانيَّة، وعالماً في جغرافيَّاً فذَّاً (ولد عام 1465م وتوفِّي عام 1554م).

كان هذا العالم الجغرافي رائداً من روَّاد رسم الخرائط في الأدب الجغرافي العثماني، وله في هذا المضمار خريطتان هامَّتان، الأولى لإِسبانيا، وغرب أفريقية، والمحيط الأطلسي، والسَّواحل الشَّرقيَّة من الأمريكيتين.. وهذه قدَّمها إِلى السُّلطان سليم الأوَّل في مصر عام 1517 م، وموجودة الآن في متحف طوبقبو في إستانبول (60×85 سم) وعليها توقيع الرَّيِّس.

والأخرى لسواحل الأطلسي من جرونلاند إِلى فلوريدا (68×69 سم) وموجودة الآن في متحف طوبقبو بإِستانبول أيضاً.

والجدير بالذِّكر: أنَّ الخريطة الَّتي رسمها الرَّيِّس بيري لأمريكا هي أقدم خريطةٍ لها.

في 26 أغسطس عام 1956م عُقدت في جامعة جورج تاون بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ندوةٌ إِذاعيَّةٌ عن خرائط الرَّيِّس بيري،

اتَّفق كلُّ الجغرافيِّين المشتركين فيها بأنَّ خرائط الرَّيِّس بيري لأمريكا: (اكتشافٌ خارقٌ للعادة).

وقد كان الرَّيِّس بيري على معرفةٍ بوجود أميركا قبل اكتشافها، ويقول في كتاب البحريَّة: (إِنَّ بحر المغرب ـ يقصد المحيط الأطلسي ـ بحرٌ عظيمٌ، يمتدُّ بعرض 2000 ميل تجاه الغرب من بوغاز سبته، وفي طرق هذا البحر العظيم توجد قارَّةٌ هي قارَّة أنتيليا)، وتعبير قارَّة أنتيليا هي الدُّنيا، أو أميركا، وقد كتب الرَّيِّس: أنَّ هذه القارَّة اكتشفت عام (870هـ/ 1465م) أي: قبل اكتشاف كولومبس لأمريكا بحوالي 27 سنة[1].

لقد ترك رِيِّس بيري كتاباً في البحريَّة أثار بما فيه من معلوماتٍ، وخرائط دقيقةٍ دهشة المعاصرين من علماء الجغرافية في أميركا، وأوربَّة... معلوماتٌ وخرائط أثبت العالم المعاصر صحَّتها.

---

[1] انظر: د. محمَّد حرب، العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، الطَّبعة الأولى 1409هـ/1989م، ص (382).

وقد ذكر الرَّاهب الجزويتي لاين هام مدير مركز الأرصاد في ويستون ما يدلُّ على عبقريَّة القائد العثماني رِيِّس بيري في علم الجغرافيا حيث يقول: (خرائط الرَّيِّس بيري صحيحةٌ بدرجةٍ مذهلةٍ للعقل، خاصَّة أنَّها تُظْهِرُ بوضوحٍ أماكن لم تكن قد اكتشفت حتَّى أيَّامه في القرن السَّادس عشر الميلادي.. إِنَّ الجانب المذهل في مكانة بيري هو رسمه لجبال أنتار كتيكا بتفاصيلها فيما رسمه من خرائط، مع أنَّ هذه الجبال، لم يكن أحدٌ قد تمكَّن من اكتشافها إِلا في عام 1952 م أي: في النِّصف الثَّاني من القرن العشرين، وكيف؟ بعد استخدام الأجهزة المتقدِّمة العاكسة للصَّوت، أمَّا قبل القائد العثماني الرَّيِّس بيري ـ يعني حتَّى القرن السَّادس عشر الميلادي ـ لم يكن أحدٌ يعرف أن أنتار كتيكا موجودةٌ، إِذ كانت مغطَّاةً بالجليد طوال عصور التَّاريخ)[1].

والمعروف أنَّ أنتار كتيكا هي القارَّة السَّادسة، والواقعة في نصف الكرة الأرضيَّة الجنوبي، لم يقتصر الذُّهول على الرَّاهب لاين هام

---

[1] المصدر السَّابق نفسه، ص (383).

فقط، بل تعدَّاه إِلى كثيرٍ من العلماء، والكتَّاب، لقد قارن بعض العلماء صور الأرض الَّتي تمَّ التقاطها من مركبات الفضاء (في القرن العشرين) بالخرائط الَّتي رسمها القائد البحريُّ العثمانيُّ الرَّيِّس بيري في البدايات المبكِّرة للقرن السَّادس عشر فاتَّضح التَّشابه المذهل بين صور مركبات الفضاء وبين خرائط بيري[1].

إِنَّ النَّهضة في الدَّولة العثمانيَّة في عصورها الزَّاهية كانت في كلِّ المستويات العلميَّة، والشَّعبيَّة، والحكوميَّة، والعسكريَّة، وكانت حركة الدَّولة، والأمَّة تعبيراً صادقاً لمفهوم العبوديَّة الشَّامل، أمَّا في العصور المتأخِّرة للدَّولة العثمانيَّة؛ فقد انحصر مفهوم العبادة في صور الشَّعائر التَّعبُّديَّة؛ الَّتي أصبحت تؤدَّى كعادةٍ موروثةٍ، ليس لها من أثرٍ في حياة ممارسيها، اللَّهُمَّ إِلا ما تستغرقه من زمنٍ لأدائها، (وتمَّ عزل العبادة عن بقيَّة الإِسلام حتَّى كأنَّ الإِسلام منحصرٌ فيها، دون بقيَّة الأجزاء، كالجهاد مثلاً، وأحكام المعاملات، أو العلاقات الماليَّة، ومع أنَّ أكثر النَّاس – إِن لم نقل:

[1] المصدر السَّابق نفسه، ص (384).

كلّهم – يعلمون: أنَّ الإِسلام ليس هو العبادات المفروضة فحسب، فإِنَّهم أهملوا الجوانب الأخرى، وغضُّوا النَّظر عنها، وأنزلوا مرتبتها، ودعا فريقٌ من المرشدين إِلى الإِعراض عمَّا سوى هذه العبادات، فالجهاد، وإِنكار المنكر، وردُّ الطُّغيان، والاستعمار، ومقاومة الظُّلم، والعمل في جميع ما ينفع المسلمين من الأمور العامَّة، كلُّ ذلك في نظر هذا الفريق من النَّاس . وما أكثرهم في عصور الانحطاط . فضولٌ يشغل عن الله، وعبادته.. وبينما كانت مقاييس الصَّلاح، والتَّقوى في الإِسلام شاملةً لجميع الواجبات؛ الَّتي أوجبها الإِسلام من عبادات خاصَّةٍ، وجهادٍ، وعلمٍ، وعدلٍ، وعملٍ نافعٍ للناس واستقامةٍ في المعاملة، وإِحسانٍ، كلُّ ذلك مقروناً بتوحيد الله، والإِخلاص له، أصبحت مقاييس التَّقوى محصورةً في العبادات)[1].

---

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (100/1).

وهكذا أعانت هذه الفكرة الَّتي عزلت العبادة عن بقيَّة أجزاء النِّظام الإِسلاميِّ الشَّامل على ضعف الوعي السِّياسي، والاجتماعي، والأخلاقي.

ولقد تسبَّب هذا الانحصار في مفهوم العبادة في سلبيَّاتٍ من أهمِّها:

- صارت الشَّعائر التَّعبُّديَّة تؤدَّى بصورةٍ تقليديَّةٍ، عديمة الأثر، والفائدة حين عُزلت عن بقيَّة أمور الإِسلام، فلا تؤدِّي هذه الشَّعائر دورها في حياة الإِنسان، وقد عُزلت عن بقيَّة جوانب العبادة الأخرى، فالصَّلاة الَّتي يخبر الله - عزَّ وجلَّ - عنها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ [العنكبوت:45] ، لم تعد ذات أثرٍ واقعيٍّ في حياة مؤدِّيها من النَّاس؛ حيث لم تعد تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وما كان لها أن تحدث ذلك الأثر؛ وقد حُصرت العبادة في أداء الشَّعائر التَّعبُّديَّة فحسب.

- تهاون النَّاس في بقيَّة جوانب العبادات الأخرى؛ إِذ هي عندهم ليست من العبادة في شيءٍ حين نرى من المسلمين من يُصلِّي

الفروض جماعةً في المسجد، ثمَّ يخرج، ويحلف على عتبة المسجد كاذباً، ويغشُّ في بيعه وشرائه، ويحتال في معاملاته، ويأكل الرِّبا أضعافاً مضاعفةً، ويقع في أعراض النَّاس، ثمَّ تراه سادراً في ذلك مرتاح الضَّمير، هادئ الخاطر، قد أسكت وخزات ضميره، وتأنيب نفسه بما نَقَرَهُ من ركعاتٍ.

- العناية بالجانب الفردي الشَّخصي، وإِهمال الجوانب الاجتماعيَّة، فنجد: أنَّ المسلمين قد "عنوا بالآداب الفرديَّة، والمتعلِّقة بذات الإِنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعيَّة المتعلِّقة بالآخرين، فقد يكون المسلم في ذاته نظيفاً، ولكنَّه لا يبالي أن يلقي القمامة في طريق المسلمين، ناسياً أنَّ: إِماطة الأذى عن الطَّريق من شُعَب الإِيمان كما ورد في الحديث"[1].

[1] أبو الحسن مسلم بن الحجَّاج القشيري النَّيسابوري، صحيح مسلم، دار الحديث، القاهرة، الطَّبعة الأولى 1412هـ/1991م، باب بيان عدد شعب الإيمان، (63/1).

"وقد يكون المسلم مراعياً لأحكام الطَّهارة، وشروط النَّظافة في نفسه، ولكنَّه لا يبالي أن يلوِّث للنَّاس طرقهم، وأماكن جلوسهم، وأن يخلَّ بالآداب الاجتماعيَّة الَّتي أمر الإِسلام بها"[1].

ونتيجةً لكون مفهوم العبادة انحصر في الشَّعائر وحدها، وخرجت منها بقيَّة الأعمال اهتمَّ النَّاس بشؤونهم الخاصَّة، وأهملوا شؤونهم العامَّة، ونمت روح الفرديَّة على حساب الرُّوح الاجتماعيَّة.

- إِقامة العبادة مقام العمل، والاكتفاء برسومها، وشعائرها، وبما أُحْدِثَ فيها من بدعٍ عن اتِّخاذ الأسباب:

«قراءة القرآن، وتلاوته لفظاً أصبح بديلاً عن العمل بما فيه من آيات الجهاد، والنَّظر إِلى الكون، والتَّفكير فيما خلق الله، وإِقامة العدل والميزان بالقسط، والحكم بما أنزل الله، واستثمار ما في الكون من نعم الله مع أنَّ ذلك كلَّه عبادةٌ.. وبينما كان الرَّسول صلى الله عليه وسلم يستعدُّ لقتال المشركين كلَّ الاستعداد كما

[1] انظر: محمَّد المبارك، المجتمع الإِسلاميُّ المعاصر، دار الفكر، بيروت، ط 1390هـ/1971م، ص (66).

أمره الله، ويدعو الله، ويبتهل إِليه لينصره؛ إِذا بالمسلمين في هذه العصور الأخيرة، يجعلون الصَّلاة، والدُّعاء ـ المأثور منه، والمبتدع المخترع ـ بديلاً عن الأسباب، فيلتمسون الرِّزق، والشِّفاء، والنَّصر، لا بأسبابها المشروعة الَّتي جعلها الله سبباً وطريقاً إِليها، بل بأدعيةٍ خاصَّةٍ يقتصرون على تلاوتها، وربَّما اخترعوا لذلك رقىً، وتمائم، وحجباً، وزياراتٍ لأمكنة خاصَّةٍ، وأوراداً ابتدعوها..)[1].

ولقد نتج عن هذا الانحصار الخطير في مفهوم العبادة أن خرجت جميع الأعمال الأخرى عن دائرة العبادة، فخرج العمل السِّياسيُّ بما يشتمل عليه من رقابة الأمَّة على أعمال الحاكم، وتقديم النَّصيحة إِليه، والسَّهر على تطبيق الشَّريعة، وإِجراء العدل في حياة النَّاس.

وما أجمل ما قاله سيِّد قطب في توضيحه لحقيقة العبادة، واستنكاره لمن يحصرها في الشَّعائر التَّعبُّديَّة: "الواقع: أنَّه لو كان حقيقة العبادة هي مجرَّد الشَّعائر التَّعبُّديَّة ما استحقَّت كلَّ هذا

---

[1] انظر: المصدر السَّابق نفسه، ص (69).

الموكب الكريم من الرُّسل والرِّسالات، وما استحقَّت كلَّ هذه الجهود المضنية الَّتي بذلها الرُّسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وما استحقَّت كلَّ هذه العذابات، والآلام الَّتي تعرَّض لها الدُّعاة، والمؤمنون على مدار الزَّمان! إنَّما استحقَّ كلُّ هذا الثَّمن الباهظ هو إخراج البشر جملةً من الدَّينونة للعباد، وردُّهم إلى الدَّينونة لله وحده في كلِّ أمرٍ، وفي كلِّ شأنٍ، وفي منهج حياتهم كلِّه للدُّنيا، وللآخرة سواءً)[1].

وهذا معنى العبادة الشَّامل الَّذي وعاه العثمانيُّون الأوائل، فطبَّقوه في حياتهم، وعملوا به في واقع الأرض، فدانت لهم الممالك، وخضعت أمامهم الطَّواغيت، ومكَّن الله لهم في الأرض، ورفعوا راية الإسلام خفَّاقةً فوق بقاعٍ شاسعةٍ من المعمورة، ويوم تبدَّل ذلك المفهوم، وانحصر في دائرة الشَّعائر؛ فترت الهمم، وضعفت العزائم عن القيام بأمور الإسلام كاملةً، فوقع الضَّعف، ثمَّ السُّقوط.

---

[1] انظر: سيِّد قطب، في ظلال القرآن الكريم، دار الشُّروق، (4/1938).

إنَّ ما حلَّ بالدَّولة العثمانيَّة من هزائم عسكريَّةٍ، وأزماتٍ اقتصاديَّةٍ، وانحرافاتٍ خلقيَّةٍ، ومصائب اجتماعيَّةٍ، وتلوُّثاتٍ فكريَّةٍ، وجفافٍ روحيٍّ، وتأخُّرٍ حضاريٍّ، كان من أسبابه إفراغ الإسلام من محتواه الأصيل، وضياع مفهوم العبادة الشَّامل.

فيومَ كانت: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ **[الأنفال:60]**، عبادةً؛ لم يجرؤ أحدٌ على احتلال أراضي المسلمين، واستلاب خيراتهم! ويوم كان: "طلب العلم فريضةً"، لم يكن هناك تخلُّفٌ علميٌّ، بل كانت الأمَّة المسلمة هي أمَّة العلم؛ الَّتي تعلَّمت أوربَّة في مدارسها، وجامعاتها!

ويوم كانت: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ﴾ **[الملك:15]** عبادةً؛ كانت المجتمعات الإسلاميَّة أغنى مجتمعات الأرض!

ويوم كانت "كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته" عبادةً، وكان وليُّ الأمر يستشعر: أنَّه راعٍ، ومسؤولٌ عن رعيَّته؛ لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضيَّةٌ؛ لأنَّ العلاج الرَّبَّانيَّ لمشكلة الفقر كان

يطبَّق في المجتمع الإِسلاميّ عبادةً لله! ويوم كانت: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النساء:19] عبادةً؛ لم تكن للمرأة المسلمة قضيَّةٌ؛ لأنَّ كلَّ الحقوق، والضَّمانات الَّتي أمر الله بها كانت تؤدَّى إِليها طاعةً لله، وعبادةً لله..)[1].

لقد كان الانحراف عن مفهوم العبادة الشَّامل من أسباب إِفساح المجال في العصور المتأخِّرة للدَّولة العثمانيَّة لشيوع المذهب العلمانِيّ، وهيمنة الشِّعارات العلمانيَّة على كثيرٍ من الأقاليم التَّابعة للدَّولة العثمانيَّة.

ثالثاً: انتشار الفرق والتيارات (المنحرفة) المحسوبة على الإِسلام:

إِنَّ أعظم انحرافٍ وقع في الدولة العثمانية كان في ظهور التيارات والفرق المنحرفة المحسوبة على الإسلام، والتي دخل بعضها تحت عباءة التصوف الإسلامي، وهي ليست فرق تحمل قيم التصوف

(1) انظر: محمد قطب، مفاهيم يجب أن تصحَّح، دار الشُّروق، القاهرة، الطَّبعة السَّابعة، 1412هـ/1922م، ص (249).

السُّني، أي تصوف أهل السنة والجماعة، لأن هذا التصوف هو الذي يلزمنا على مرّ الأزمان، باعتباره يمثل الزُّهد في شهوات وملذات الدنيا، والتزكية الإيمانية الأصيلة النابعة من القرآن الكريم وسُّنة نبيه المصطفى ﷺ، ولكن هي تيارات الانحراف الفكري المحسوب على التيار الصُّوفي وهناك فرق مثل القاديانية والبهائية وغيرها، ظهرت كقوَّةٍ منظَّمةٍ في المجتمع الإِسلامي تحمل عقائد وأفكار وعبادات، بعيدةً عن كتاب الله، وسنَّة رسوله (صلى الله عليه وسلم).

لقد كان العهد العثماني، هو عهد الصُّوفيَّة الَّتي انتشرت في العالم الإِسلامي من أدناه إِلى أقصاه، ولم تبق مدينةٌ، ولا قريةٌ إلا دخلتها إِلا إِذا استثنينا نجداً، وملحقاتها[1]. ولو كانت الصوفية الحقة، والتي كانت غاية سلف الأمة وكبارها من الصّحابة والتّابعين ومن سار بعدهم في طريق الحق والهداية، والتي أصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زُخرف الدينا وزينتها،

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (447/1).

واشتهر من أعلام المتصوفة والزُّهاد كثيرون من أمثال الإمام الحكيم الترمذي وحاتم الأصمّ وسفيان الثوريّ ورابعة العدوية والشاعر أبي العتاهية، وهم الذين قصدهم ابن خلدون في مقدمته حين قال: "فلمّا فشا الإقبال على الدّنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح النّاس إلى مخالطة الدّنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصّوفية والمتصوفة"[1].

ولكن في الحقيقة سيطرت وعَمَّتْ التيارات الفكرية المنحرفة بغطاء صوفي، وذلك على المستوى العقدي والأفكار التغريبيّة في العالم الإِسلامي آنذاك، ووقع جمهورٌ من المسلمين في أسرها[2]؟!

وكانت نظرة أولئك المحسوبين على الصوفية احترام البطالة والتقاعس عن العمل، وكانت تبيح التَّسوُّل، وتصطنع الضِّيق، وتسعى إِلى مواطن الذُّلِّ، وتغتبط بالهوان، وكانت نظرتهم إِلى

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دمشق، دار يعرب، ط1 2004م، 1/ 611.

[2] المصدر السَّابق نفسه، (448/1).

الأخذ بالأسباب منحرفةً جدَّاً: (فما أخْيَبَ التَّاجرَ الذي يصرف وقته في تجارته، والزَّارع الذي ينفق جهده في زراعته، والصَّانع الَّذي يبذل نشاطه في صناعته، وما أفشلَ من سافر منهم طلباً لكسبٍ، أو رغبةً في مالٍ، فإِنَّ الرزق في طلب صاحبه دائرٌ، والمرزوق في طلب رزقه حائرٌ، وبسكون أحدهما يتحرَّك الاخر...!!).

وفسدت لدى كثير من أتباع تلك الأفكار عقيدة القضاء والقدر، وأصبحت عندهم عقيدةً سلبيَّةً مخذِّلةً، لقد كتب أحد المستشرقين الألمان؛ وهو يؤرِّخ لحال المسلمين في عصورهم الأخيرة، يقول: "طبيعة المسلم التَّسليم لإِرادة الله، والرِّضا بقضائه وقدره، والخضوع بكلِّ ما يملك للواحد القهَّار، وكان لهذه الطَّاعة أثران مختلفان: ففي العصر الإِسلامي الأوَّل لعبت دوراً كبيراً في الحروب؛ إِذ حقَّقت نصراً متواصلاً؛ لأنَّها دفعت في الجندي روح الفداء، وفي العصور الأخيرة كانت سبباً في الجمود الَّذي خيَّم على العالم

الإِسلامي، فقذف به إِلى الانحدار، وعزله، وطواه عن تيَّارات الأحداث العالميَّة"[1].

اشتد عود التيارات الفكرية المنحرفة والتي وجدت في الصوفية ملاذاً لها، واشتدَّت شوكتها في أواخر العهد العثماني، نتيجة عدة عوامل، وأهمها:

أ . الأحوال السَّيِّئة الَّتي كانت تعيشها الأمَّة الإِسلاميَّة، والواقع المرير الَّذي كان يعيشه المسلمون في تلك الفترة، من انتشار التخلُّف، والظُّلم، والطُّغيان، والفقر، والمرض، والجهل، كلُّ ذلك جعل النَّاس يميلون إلى تلك الفرق والتيارات المنحرفة القائمة على التشويه للعقيدة وتحريف العبادات والغرق في الخرافات والأراجيف، ويكون دور أتباع ومريدي تلك التيارات لا يتكلفون أكثر من التَّربيت على الناس، والتَّحذير لهم، وجعلهم يعيشون في غير واقعهم الَّذي فرُّوا منه.

---

[1] انظر: باول سمتز، الإِسلام قوَّة الغد العالميَّة، ص (78).

ب ـ كان اضطراب الأمن، وانعدامه سمةً من سمات العصور المتأخِّرة، حيث كانت تُزهق الأرواح لأسبابٍ تافهةٍ، بل دون سببٍ في بعض الأحيان، وفي هذه الأجواء الحالكة، والظُّروف العصيبة كان أرباب التصوُّف يحيون حياةً هادئةً يرفرف عليها الأمن والاطمئنان بعيدةً عن المصائب والفتن الَّتي فتكت بالنَّاس.

"قد كان الفقراء أروح بالاً، وأكثر طمأنينةً من الفلاحين في حقولهم، والتُّجار في متاجرهم، والصُّنَّاع في مصانعهم، فقد كانوا في أمنٍ من تطبيق القوانين.. وكانوا في أغلب فترات الظُّلم الفادح في نجاةٍ من هذه الشُّرور كلِّها؛ لأنَّ الجنود كانوا يخافون بأسهم، ويخشون سلطانهم الرُّوحي، ويؤمنون باتِّصالهم بالله، فيتزلَّفون إِليهم، ويطلبون الرِّضا منهم، فأقبل بعض النَّاس على دخول الطَّريق مدفوعاً بما سيصيبه من رحاب الزَّوايا من اطمئنان البال، واستقرار الحال"[1].

(1) انظر: د. توفيق الطَّويل. التَّصوُّف في مصر إبَّان العصر العثماني، مطبعة الاعتماد بمصر، 1365هـ/1946م، ص، (152، 154).

ج ـ التَّرف في معيشة أرباب الفرق: "كان الفقراء فوق النَّجاة من ضغط الحياة يومذاك، لا يجهدون أنفسهم في احتراف عملٍ يكسبون قوتهم من ورائه، بل كانوا يعيشون في الزوايا، طاعمين، كاسين على نفقة المحسنين، والأثرياء بدعوى التَّفرُّغ للذِّكر، والانقطاع للتهجُّد، والتجرُّد لعبادة الله.. ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزُّهاد الَّذين يدَّعون التقشُّف، والقناعة بالتَّافه من شؤون العيش أرغد عيشاً، وأترف حياةً من الفلاحين، والتُّجار، وأرباب الحرف..[1].

د ـ حبُّ الأتراك العثمانيِّين للدَّروشة، والتصوُّف: "كان الأتراك يحبُّون التَّصوُّف، ويميلون إلى تقديس أهل الإيمان بصدق ولايتهم"[2].

"لقد كانت الصُّوفيَّة قد أخذت تنتشر في المجتمع العبَّاسي، ولكنَّها كانت ركناً منعزلاً عن المجتمع، أمَّا في ظلِّ الدَّولة العثمانيَّة،

---

[1] المصدر السَّابق نفسه، ص (154).

[2] المصدر السَّابق نفسه، ص (154).

وفي تركيا بالذَّات؛ فقد صارت هي المجتمع، وصارت أساس التدين، وانتشرت – في القرنين الأخيرين بصفةٍ خاصَّةٍ – تلك القولة العجيبة: مَنْ لا شيخ له؛ فشيخه الشَّيطان! وأصبحت – بالنِّسبة للعامَّة بصورةٍ عامَّة – هي مدخلهم إِلى الدِّين، وهي مجال ممارستهم للدِّين"[1].

وقد كان كثير من سلاطين آل عثمان يقومون برعاية الصُّوفيَّة، ويفيضون عليها من عطفهم، ويوُلونها رعايتهم، حتَّى جاء السلطان عبد الحميد إِلى السَّلطنة في ظروفٍ عصيبةٍ، والمؤامرات تحاك للأمَّة، والكوارث والمحن تحيط بها من كلِّ مكانٍ، ودعاة القوميَّة يبثُّون دعوتهم في سائر البلاد، فدعا إِلى الجامعة الإِسلاميَّة، والرَّابطة الدِّينيَّة، وكانت وكما ذكرنا بعض التيارات المحسوبة على الإسلام، تشكِّل ثقلاً في الدَّعوة إِلى الجامعة الإِسلاميَّة.

لقد كانت التيارات والأفكار المنحرفة، تنخر في كيان الدَّولة العثمانيَّة في أيامها الأخيرة، وكان العالم الغربي ينطلق في مجالات

---

[1] انظر: قطب، واقعنا المعاصر، مرجع سابق، ص (155).

العلم، وميادين المعرفة آخذاً بأسباب القوَّة، والتَّقدُّم، والرُّقيِّ، ويُدير المؤامرات، والدَّسائس لتفتيت الدَّولة العثمانيَّة، ومن ثمَّ الهيمنة على العالم الإِسلامي [1].

وفي أواخر العصر العثماني، أصبحت حياة أهل الانحراف والخرافات مليئة في اللَّهو، والسَّخافة، وأضاعوا أوقاتهم وأعمارهم في مجالس الذِّكر، والسَّماع، والملاهي، وأصبحت حياتهم من أوَّلها إِلى اخرها تدور حول الذِّكر في صورته المنحرفة، وضاعت عبادة السَّعي في مناكب الأرض، وطلب الرِّزق، والجهاد، وطلب العلم، ونشره، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، فكلُّها أمورٌ تشغل عن الذِّكر، وتصدُّ عنه، ومن ثمَّ ينبغي على المسلم ألا يشتغل بها، وأن يعيش حياته على الذِّكر بالسَّماع، والغناء، والرَّقص.

وكان لدى هؤلاء ظاهرة تقديس الأشخاص الأموات منهم، والأحياء، ونسبوا إِليهم خوارق العادات، والكرامات، وعاشوا في الأوهام عالم الخيال، وأصيب النَّاس بالوهن، والعجز، والانحطاط،

---

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (506/1).

واتَّسعت هوة التخلُّف والسُّقوط، وكانت أوربة الصَّليبيَّة تواصل صعودها في سلَّم الحضارة المادِّيَّة، وتعدُّ جيوشها للزَّحف على العالم الإِسلامي الغارق أهله في دنيا الخرافات، والأوهام، والاتِّكال على الخوارق والكرامات.

في الوقت الَّذي كانت فيه الأمَّة تعاني أشدَّ المعاناة من الضَّعف، والانحطاط، وتدور عليها المؤامرات من الأعداء، وتحاك لها الدَّسائس، كان كثيرٌ من علمائها طوع مشيئة شيوخهم من المتصوِّفة المنحرفين الَّذين أشاعوا روح الذُّلِّ، والخنوع في الأمَّة، والذِّلَّة، والهوان، وغير ذلك من الأمراض المنحرفة، وتركت كثيرٌ من الطُّرق المنحرفة الجهاد لمقارعة الأعداء، وأصبح الأولياء في عرف النَّاس هم المجاذيب، والمجانين، والمعتوهين، ولا شكَّ، أنَّ هناك بينهم -بنسبة كبيرةٍ- من الدَّجَّالين، والمحترفين، الذين استغلُّوا ما للمجاذيب من مكانةٍ مقدَّسةٍ في نفوس النَّاس، فاندسوا في صفوفهم، ليصبحوا ضمن رابطة الأولياء، من الَّذين لا لوم عليهم، ولا عتاب، مهما ارتكبوا من الموبقات، وجاهروا بالفواحش،

والآثام، وكان الكثير منهم يتعامل مع الجنِّ، فكان طبيعياً أن تنفذ سهام الأعداء، وتنجح مخطَّطاتهم، وتحتلَّ جيوشهم أرضنا، وتُستباح بيضتنا.

ومن الفرق المنحرفة التي انتشرت بشكل كبير فرق القاديانيَّة، والبهائيَّة، وغيرها من الفرق الضَّالَّة المحسوبة على الإِسلام.

لقد كانت تلك الفرق قد استفحل أمرها، خصوصاً مع مجيء الحملات الصليبية التي طوَّقت العالم الإسلامي، فكانوا على عادتهم دائماً مع أعداء المسلمين عوناً لهم، وجنداً مخلصين تحت قياداتهم.

ففي الماضي كانوا أكبر عونٍ للتَّتار والصَّليبيِّين ضدَّ المسلمين، وها هم يسيرون على نفس المنهج الممزوج بالخيانة، والتَّآمر لحساب أعداء الأمَّة، وقد مرَّ بنا في أصل هذا الكتيب دور الصَّفويَّة الاثني عشريَّة في محاربة الدَّولة العثمانيَّة على مرِّ عصورها، وحين احتلَّ الفرنسيُّون سوريا، وانطلقت الحركات الجهاديَّة ضدَّهم كان أعضاء

بعض الفرق الضالة يقاتلون جنباً إِلى جنب مع الفرنسيِّين كما فعلوا مع المجاهد (إبراهيم هنانو) ومن معه من المجاهدين[1].

وكان الأمير بشير الشِّهابي المتوفى سنة (1266هـ) يقف بجنوده بجانب جيش محمَّد علي عند احتلاله للشَّام، ممَّا سهَّل على جيش محمَّد علي هزيمة الجيش العثماني في حمص، وعبر جبال طوروس، وأوغلت جيوشه في قلب بلاد التُّرك، وكان هناك مراسلاتٌ بين نابليُّون، وطائفة الشهابي عند حصار الفرنسيِّين (عكَّا)[2].

أمَّا البهائيَّة فقد نشأت عام 1260هـ/1844م تحت رعاية الاستعمار الرُّوسي، واليهوديَّة العالميَّة، والاستعمار الإِنجليزي بهدف إِفساد العقيدة الإِسلاميَّة، وتفكيك وحدة المسلمين

---

[1] انظر: الأعلام، (42/1).

[2] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (577/1).

وصرفهم عن قضاياهم الأساسيَّة، وقد ادَّعى البهاء المهديَّة، ثمَّ ادَّعى النُّبوَّة، ثمَّ ادعى الرُّبوبيَّة، والألوهيَّة[1].

إنَّ من المؤلم حقَّاً تهاون الدَّولة العثمانيَّة في القضاء على تلك النِّحلة الخبيثة، وتطبيق حكم الله، وشرعه في أمثالهم.

وأمَّا القاديانية فهي نحلةٌ تنسب إلى (غلام أحمد القادياني)، ونسبت إلى قرية قاديان من إقليم البنجاب في الهند (المتوفى سنة 1326هـ) وهي: (حركة نشأت بتخطيطٍ من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهنديَّة بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم، وعن فريضة الجهاد بشكلٍ خاصٍّ، حتَّى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام)[2].

وقد ادَّعى القاديانيُّ النُّبوَّة، ثمَّ الألوهيَّة، وقد كان من أبرز ملامح دعوة (غلام أحمد القادياني) (ميله الشَّديد للإنجليز، وخدمته

---

[1] المصدر السَّابق نفسه، (589/1).

[2] انظر: مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسَّرة للأديان، ص (389).

لأغراضهم في بلاد الهند، وإِبطال عقيدة الجهاد لهم، وثناؤه عليهم، وحثُّ أتباعه على نصرتهم في كلِّ مكانٍ..)[1].

ويقول القادياني: (ولا يجوز عندي أن يسلك رعايا الهند من المسلمين البُغاة، وأن يرفعوا على هذه الدَّولة المحسنة سيوفهم، أو يعينوا أحداً في هذا الأمر، ويُعان على شيءٍ أحد من المخالفين بالقول، أو الفعل، أو الإِشارة، أو المال، أو التَّدابير المفسدة، بل هذه الأمور حرامٌ قطعيٌّ، ومن أرادها؛ فقد عصى الله، ورسوله، وضلَّ ضلالاً مبيناً)[2].

لقد كانت تلك الفرق مصدراً لإِثارة القلاقل، والفتن، وإِحداث الفوضى في داخل الدَّولة العثمانيَّة، وكذلك في تجمُّعات المسلمين كالهند، وغيرها، وكانت تلك الفرق لا تكلُّ، ولا تملُّ في تآمرها المستمرِّ مع أعداء الإِسلام، وفي خيانة المسلمين في أحرج

---

[1] انظر: د. عثمان عبد المنعم، عقيدة ختم النُّبوَّة بالنُّبوَّة المحمَّدية، مكتبة الأزهر 1978م، ص (209).

[2] انظر: د. أحمد سعدان حمدان، عقيدة ختم النُّبوَّة المحمَّدية، دار طيبة، الرِّياض، الطَّبعة الأولى، 1405هـ/1985م، ص (255).

الأوقات، وأحلك الظُّروف، لقد اكتوت الأمَّة بشرور تلك الفرق عندما ضعفت عقيدة أهل السُّنَّة في كيان الدَّولة القائمة عليها، وفي نفوس رعاياها من أهل السُّنَّة.

لقد لقيت هذه العقائد المنحرفة رواجاً واسعاً في صفوف التيار الصوفي في تلك الفترة الحرجة الَّتي كانت تمرُّ بها الأمَّة الإِسلاميَّة، فكان كثيرٌ منهم يؤمن بعقيدة وحدة الوجود، الَّتي لا يمكن للحياة في ظلِّها إلا أن تفسد، ويحيق الدَّمار بالعالم، وتبطل الأديان بالكلِّيَّة، فلا يبقى معها دينٌ، ولا جهادٌ، ولا عداءٌ بين مسلمٍ، وكافرٍ، فالكلُّ واحدٌ، والوجود واحدٌ؛ وإن تعددت المظاهر. نسأل الله السَّلامة في الدِّين!

المبحث الثاني: انتشار مظاهر الشِّرك، والبدع، والخرافات وظهور المنحرفين:

أولاً: انتشار الشرك:

إِنَّ الدَّولة العثمانيَّة في القرنين الأخيرين كانت غارقةً في كثيرٍ من مظاهر الشِّرك، والبدع، والخرافات، وحدث انحرافٌ في توحيد الألوهيَّة انحرافاً رهيباً، وغشيها موجٌ من الظَّلام، والجهل حجب عنها حقيقة الدِّين، وطمس فيها نور التَّوحيد، وعدل بها عن صراطه المستقيم[1].

يوم كانت الدَّولة العثمانيَّة محقِّقةً للتَّوحيد، وتمارس مفهوم العبادة الشَّامل، وتحارب الشِّرك كانت في ذروة التَّمكين، والعزِّ، والنَّصر من الله تعالى، فهذا السُّلطان مراد الأوَّل وهو في سكرات الموت بعدما طعنه جنديٌّ صربيٌّ يودِّع الدنيا بمعانٍ عميقةٍ في التَّوحيد، وكلماتٍ جامعةٍ على التَّوحيد المنافي للشِّرك، فيقول: "لا يسعني

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق (271/1).

حين رحيلي إِلا أن أشكر الله، إِنَّه علام الغيوب المتقبِّل دعاء الفقير، أشهد أن لا إِله إِلا الله، وليس يستحقُّ الشُّكر، والثَّناء إِلا هو، لقد أوشكت حياتي على النِّهاية، ورأيت نصر جند الإِسلام، أطيعوا ابني يزيد، ولا تعذِّبوا الأسرى، ولا تؤذوهم، ولا تسلبوهم، وأودِّعكم منذ هذه اللَّحظة، وأودِّع جيشنا الظَّافر العظيم إِلى رحمة الله، فهو الَّذي يحفظ دولتنا من كلِّ سوءٍ"[1].

أمَّا السُّلطان مراد الثَّاني فقد ترك وصيَّته: (فليأتِ يومٌ يرى النَّاس فيه ترابي)[2] لقد كان قلقاً يخشى أن يدفن في قبرٍ ضخمٍ، وكان يريد ألا يُبنى شيءٌ على مكان دفنه.

لقد كان السَّلاطين الأوائل تتفجَّر معاني التَّوحيد في كلماتهم، وتنعكس على أعمالهم، وانتشرت تلك المفاهيم في الشَّعب العثمانيِّ قاطبةً، أمَّا في العصور المتأخِّرة؛ فقد تغيَّر الحال، ومع

---

[1] انظر: د. عبد العزيز العمري، الفتوح الإِسلاميَّة عبر العصور، دار إِشبيلية، الرِّياض، الطَّبعة الأولى، 1418هـ/1997م، ص (391).

[2] انظر: حرب، العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص (346).

تضافر الأدِّلة، وتواترها، ووضوحها في النَّهي عن كلِّ السُّبل المفضية إِلى الشِّرك، وتحذير النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وتشديده في ذلك قبل وفاته، كقوله صلى الله عليه وسلم في الصَّحيحين: "لعن الله اليهود، والنَّصارى، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد!" يحذِّر مثل ما صنعوا[1].

قالت عائشة -رضي الله عنها -: "ولولا ذلك لأُبرز قبره، ولكن كُره أن يُتَّخذ مسجداً" [2]. وقوله صلى الله عليه وسلم: "لعن الله زائرات القبور، والمتَّخذين عليها المساجد، والسُّرج!"[3].

وقال صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس: "إِنَّ مَنْ كان قبلكم كانوا يتَّخذون القبور مساجد، ألا فلا تتَّخذوا القبور مساجد! فإِنِّي أنهاكم عن ذلك!"[1].

---

[1] مسلم، الجامع الصحيح، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (376).

[2] البخاريُّ، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتِّخاذ المساجد على القبور رقم (1330).

[3] التِّرمذيُّ، السنن، كتاب الجنائز، باب ما جاء أن يُتَّخذ على القبر مسجدٌ، رقم (320).

وقوله صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثناً يعبد! اشتدَّ غضب الله على قومٍ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد!"[2]، وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تجلسوا على القبور، ولا تصلُّوا إِليها!"[3].

وحين ذكرت له بعض نسائه كنيسةً رأينها في أرض الحبشة فيها تصاوير، قال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ أولئك إِذا مات فيهم الرَّجل الصَّالح؛ بنوا على قبره مسجداً، ثمَّ صوَّروا فيه تلك الصُّور، أولئك شرار الخلق عند الله!"[4].

---

[1] مسلمٌ، الجامع الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب النَّهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (532).

[2] مالك، الموطأ، (172/1).

[3] مسلمٌ، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب النَّهي عن الجلوس على القبور، رقم (972).

[4] البخاريُّ، الجامع الصحيح، كتاب الصَّلاة، باب: هل تنبش قبور مشركي الجاهليَّة؟ رقم (427).

ونهيه صلى الله عليه وسلم أن يجصَّص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه، وجاء في روايةٍ أخرى النَّهي عن الكتابة على القبور[1].

وفي أواخر الدَّولة العثمانيَّة كثُر على غير العادة تشييد القباب، وبناء الأضرحة، وإِقامة المشاهد، وتحديث المزارات حتَّى لكأنَّ هذه النُّصوص جاءت تأمر بالبناء على القبور، وتذكر فضله، وتحثُّ عليه.

وزاد الأمر سوءاً: أنَّ بعض الفقهاء أفتوا بجواز بناء القباب على القبور إِذا كان الميِّت فاضلاً، واحتجُّوا بقولهم: إِنَّ بعض السَّلف استحسن ذلك، وزاد الطِّين بِلَّةً: أنَّهم أودعوا تلك الآراء الفاسدة في مصنَّفاتهم؛ الَّتي يعكف على دراستها الطُّلاب[2].

---

[1] التِّرمذيُّ، السنن، كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهيَّة تجصيص القبور، صحَّحه الألباني رقم (757).

[2] الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (272/1، 273).

وانتقل هذا الوباء العظيم، وبدأ في نخر الدَّولة العثمانيَّة، وتعاظم شرُّه، ووقع ما حذَّر منه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من الشِّرك العظيم.

وقد تجلَّت مظاهر الشِّرك، ووسائله في تلك الفترة في الصُّور التَّالية:

- بناء المساجد، والقباب، والمشاهد على الأضرحة، والقبور في أقاليم الدَّولة، بل انتشر ذلك في العالم الإِسلاميِّ كلِّه، وللأسف الشَّديد نجد الدَّولة العثمانيَّة في العصور المتأخِّرة تشجِّع على تلك المشاهد، والأضرحة المنتشرة في العالم الإِسلامي، فمثلاً أعفت الدَّولة أهالي البصرة من الرُّسوم، والتَّكاليف احتراماً لصاحب الحضرة الشَّريفة، يعني: الزُّبير بن العوَّام ـ رضي الله عنه ـ وأنَّ العثمانيِّين بنوا على ضريحه مسجداً، وقامت والدة السُّلطان عبد العزيز بترميم القباب، وتكبير المسجد. وفي سنة 1293هـ ورد أمرٌ من السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بتعمير هذه المراقد الشَّريفة على نظارة والي البصرة (ناصر باشا السَّعدون).

ثمَّ في سنة 1503هـ أمر السُّلطان عبد الحميد أيضاً بتبييض القباب، وتعمير المسجد، وأمر أيضاً بكسوتين للضَّريحين (الزُّبير، وعتبة بن غزوان) من الحرير الأحمر المفتخر المطرَّز بالفضَّة، وأمر أيضاً بوضع مباخر، وقماقم من الفضَّة عند الضَّريحين الكريمين[1].

وكانت جميع الأقاليم الإِسلاميَّة، وفي الحجاز، واليمن، وإِفريقية، ومصر، والمغرب العربيّ، والعراق، والشَّام، وتركيَّا، وإِيران، وبلاد ما وراء النَّهر، والهند، وغيرها تتسابق في بناء الأضرحة، والقباب، وتتنافس في تعظيمها، والاحتفاء بها؛ إِذ البناء على القبور هو ما درج عليه أهل ذلك العصر، وهو الشَّرف الَّذي يتوق إِليه الكثيرون.

لقد أولع العثمانيُّون في عصورهم المتأخِّرة بالبناء على كلِّ ما يعظِّمه النَّاس في ذلك العصر، سواءٌ أكان ما يعظِّمونه قبوراً، أو آثاراً لأنبياء، أو غير ذلك.

---

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (294/1).

وأصبحت تلك المشاهد، والأضرحة محلاً للاستغاثة، والاستعانة بأصحابها، وانتشرت عقائد شركيَّةٌ، كالذَّبح لغير وجه الله، والنَّذر للأضرحة، والاستشفاء، وطلب البراء من الأضرحة، والاعتصام بها، وأصبحت الأضرحة والقبور تهيمن على حياة النَّاس، وهكذا طغت هذه الأضرحة على حياة النَّاس، وأصبحت مهيمنةً على شؤونهم، وشغلت تفكيرهم، وتبوَّأت في نفوسهم، وقلوبهم أعلى مكانةٍ، وكانت رحى تلك الهيمنة تدور على الغلوِّ، والشِّرك بالأموات، والتَّعلُّق بهم من دون الله، عزَّ وجلَّ، فلا يبرمون من أمورهم صغيرةً، ولا كبيرةً إلا بعد الرُّجوع إلى تلك الأضرحة، ودعاء أصحابها، واستشارتهم، وهم لا يملكون لأنفسهم ضرَّاً، ولا نفعاً، فكيف لغيرهم؟! وقد كان العلماء وللأسف الشَّديد يتقدَّمون العامَّة، ويسنُّون لهم السُّنن السَّيِّئة في تعظيم الأضرحة، والمقامات، والولوع بها، ويزرعون الهيبة في نفوسهم بما كانوا يقومون به.

وقد تمادى النَّاس في الشِّرك، والضَّلال، وأمعنوا في الوثنيَّة، ومحاربة التَّوحيد، فلم يكتفوا بالمقبورين، والأحياء، بل أشركوا بالأشجار، والأحجار، ووصل الأمر إِلى اعتقاد العامَّة في بغداد في مدفعٍ قديمٍ في ساحة الميدان من بقايا أسلحة السُّلطان مراد العثماني الَّتي استخدمها في حربه مع الفرس، لإِخراجهم من بغداد حيث كانوا يقدِّمون إِليه النُّذور، ويطلبون منه إِطلاق ألسنة أطفالهم، وهو يُعرف عندهم: "طوب أبي خزامة" ممَّا حدا بالعلامة محمود شكري الالوسي إِلى التَّصدِّي لهذه الخرافة الشَّنيعة بكتابة رسالةٍ يزجر بها هؤلاء الجاهلين، أسماها بـ: (القول الأنفع في الرَّدع عن زيارة المدفع)[1].

واعتاد النَّاس في أواخر الدَّولة العثمانيَّة أن يحلفوا بغير الله – عزَّ وجلَّ – من المخلوقين، وكان يسهل عليهم الحلف بالله كاذباً، عامداً، متعمِّداً، ولكنَّه لا يجرؤ أبداً أن يحلف بما عظَّمه من المخلوقين إِلا صادقاً.

---

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (367/1).

ثانياً: انتشار البدع:

كان السَّلاطين الأوائل في الدَّولة العثمانيَّة ينفِّرون من البدع، وأهلها، ويحاربونها، فهذا السُّلطان محمد الفاتح في وصيَّته يقول لمن بعده: "جانب البدع، وأهلها، وباعد الَّذين يحرِّضونك عليها".

أمَّا في العصور المتأخِّرة من الدَّولة العثمانيَّة؛ فإِنَّ البدع انتشرت انتشاراً ذريعاً، وأصبحت حياة رعايا الدَّولة ممزوجةً بها، فقلَّما تخلو منها عبادةٌ، أو عملٌ، أو شأنٌ من شؤون الحياة، سواءٌ في الجنائز، والمآتم، والأعراس، والضِّيافات، والولائم، وبدع الموالد عند المتصوِّفة المنحرفين، وهكذا أصبحت البدع تُرى في كلِّ مكانٍ، تكاد تحتلُّ منزلة الصَّدارة من حياة النَّاس، يعمل بها الجاهلون، ويؤيِّدها العالمون، وأصبحت السُّنَّة بدعةً، والبدعة سنَّةً[1]، وتغيَّر مفهوم الدِّين، والعلم من منهجٍ كاملٍ، وشاملٍ لجميع مجالات الحياة إِلى طقوس غريبةٍ، ورسومٍ باليةٍ يتشبَّثون بها، ويحسبون: أنَّهم مهتدون. وتحوَّل صحيح البخاريِّ بما حواه من منهجٍ للنَّبيِّ صلى الله عليه

---

[1] انظر: محمَّد المجذوب، مشكلات الجيل في ضوء الإِسلام، ط 1390هـ، ص (373).

وسلم إِلى تقليدٍ بالٍ رتيبٍ، يُتلى في الأزمات، ويُقرأ في الحروب، طلباً للنَّصر، ودحر الأعداء[1].

لقد أضحت السُّنَّة في تلك الفترة غريبةً جدَّاً، بعد أن غمرها طوفان البدع العظيم، وصار النَّاس متشبِّثين بالبدع على أنَّها من صميم الدِّين، ويأبون التَّفريط فيها مطلقاً، في الوقت الَّذي كانوا يفرِّطون فيه في كثيرٍ من أحكام الإِسلام، ويكافحون من أجلها، ويتعاهد عليها، ويرون: أنَّهم خدموا الدِّين، ونفعوا المسلمين[2].

ثالثاً: انتشار الخرافات:

في أواخر الدَّولة العثمانيَّة فشت الخرافات، والأساطير في جموع المسلمين بشكلٍ منقطع النَّظير، وأضحت كحقائق مسلَّمةً لا تقبل النِّقاش مطلقاً، وليس ذلك فحسب، وإِنَّما غدت عند كثيرٍ منهم أموراً مقدَّسةً لا يجوز التَّهاون بها، فضلاً عن التَّشكيك في صحَّتها.

---

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، (380/1).

[2] المصدر السَّابق نفسه، (428/1).

ومن الخرافات في الآستانة: أنَّ جامع خوجة مصطفى باشا محاطٌ بجنزيرٍ مربوطٌ فيه بشجرة سروٍ قديمةٍ، ولهذا الجنزير خرافةٌ يتناقلها الجهلاء، مؤدَّاها: أنَّ كلَّ من أنكر شيئاً حقيقيَّاً، وجلس تحت هذا الجنزير، فهو يسقط على رأسه، وإِذا كان صادقاً في إِنكاره، فالجنزير لا يتحرَّك[1]. لقد كانت الأمَّة في تلك الفترة غارقةً في عبادة الأضرحة، والتَّعلُّق بها من دون الله، عزَّ وجلَّ، ووقعت فريسةً لكثيرٍ من مظاهر الشِّرك، والغلوِّ، والبدع، والخرافات، الَّتي ملأت حياتها، وشغلت أوقاتها، وقتلت طاقاتها، وصرفت جهودها عن طريقها الصَّحيح، فعجزت عن النُّهوض من كبوتها، وما استطاعت أن تعالج أسباب انحطاطها؟ وانهزمت أمام جيوش الأعداء، ووهنت عن مقاومة مخطَّطاتهم، ومؤامراتهم، وكانت النَّتيجة ضياع الدَّولة العثمانيَّة.

[1] المصدر السَّابق نفسه، (432/1).

المبحث الثالث: غياب القيادة الربَّانيَّة:

إِنَّ القيادة الرَّبَّانيَّة من أسباب نهوض الأمَّة، والتَّمكين لها؛ لأنَّ قادة الأمَّة هم عصب حياتها، وبمنزلة الرَّأس من جسدها، فإِذا صلح القادة؛ صلحت الأمَّة، وإِذا فسد القادة؛ صار هذا الفساد إِلى الأمَّة، ولقد فطن أعداء الإِسلام لأهميَّة القيادة الرَّبانيَّة في حياة الأمَّة، ولذلك حرصوا كلَّ الحرص على ألا يمكِّنوا القيادات الرَّبَّانيَّة من امتلاك نواصي الأمور، وأَزِمَّة الحكم في الأمَّة الإِسلاميَّة، ففي خطة لويس التَّاسع أوصى بـ(عدم تمكين البلاد الإِسلاميَّة، والعربيَّة من أن يقوم بها حاكمٌ صالحٌ) كما أوصى بـ(العمل على إِفساد أنظمة الحكم في البلاد الإِسلاميَّة بالرَّشوة، والفساد، والنِّساء، حتى تنفصل القاعدة عن القمَّة)[1].

وصرح القائد المستشرق البريطاني (مونتجومري وات) في (جريدة التَّايمز اللَّندنيَّة) قائلاً: (إِذا وجد القائد المناسب الَّذي يتكلَّم

---

[1] انظر: جلال العالم، قادة الغرب يقولون، ص (63).

الكلام المناسب عن الإِسلام، فإِنَّ من الممكن لهذا الدِّين أن يظهر كإِحدى القوى السِّياسيَّة العظمى في العالم مرَّةً أخرى)[1].

وقال المستشرق الصَّهيوني (برنارد لويس) تحت عنوان (عودة الإسلام) في دراسةٍ نشرها عام 1976م: (إِنَّ غياب القيادة العصرية المثقَّفة: القيادة الَّتي تخدم الإِسلام بما يقتضيه العصر من علمٍ، وتنظيمٍ، إِنَّ غياب هذه القيادة قد قيَّدت حركة الإِسلام كقوَّةٍ منتصرةٍ، ومنع غياب هذه القيادات الحركات الإِسلاميَّة من أن تكون منافساً خطيراً على السُّلطة في العالم الإِسلامي، لكن هذه الحركات يمكن أن تتحوَّل إِلى قوىً سياسيَّةٍ هائلةٍ إِذا تهيَّأ لها هذا النَّوع من القيادة)[2].

إِنَّ الباحث في الدَّولة العثمانيَّة يجد: أنَّ القيَّادة الرَّبانيَّة كانت موجودةً في عصورها المتقدِّمة، وخصوصاً عند فتح القسطنطينيَّة، فنجد القادة الرَّبَّانيِّين في المجال الجهاديِّ، والمجال المدنيِّ، ونلاحظ

---

[1] المصدر السَّابق نفسه، ص (25).

[2] انظر: التَّمكين للأمَّة الإِسلاميَّة، ص (185).

الصِّفات المشتركة بينهم، كسلامة المعتقد، والعلم الشَّرعي، والثِّقة بالله، والقدوة، والصِّدق، والكفاءة، والشَّجاعة، والمروءة، والزُّهد، وحبُّ التَّضحية، وحسن الاختيار للمعاونين، والتَّواضع، وقبول التَّضحية، والحلم، والصبر، وعلوِّ الهمَّة، والتَّميُّز بخفَّة الرُّوح، والدُّعابة، والحزم، والإرادة القويَّة، والعدل، والاحترام المتبادل، والقدرة على حلِّ المشكلات، والقدرة على التَّعليم، وإعداد القادة، وغير ذلك من الصِّفات.

قاد محمَّد الفاتح الأمَّة في زمنه قيادةً ربَّانيَّةً، وقد جرى الإيمان في قلبه، وعروقه، وانعكست ثماره على جوارحه، وتفجَّرت صفات التَّقوى في أعماله، وسكناته، وأحواله، وانتقل بدولته، وشعبه نحو الأهداف المرسومة بخطواتٍ ثابتةٍ، وكان العلماء الرَّبَّانيُّون هم قلب القيادة في الدَّولة، وعقلها المفكِّر، ولذلك سارت الأمَّة والدَّولة العثمانيَّة على بصيرةٍ، وهدىً، وعلمٍ[1]، وأمَّا في العصور المتأخِّرة؛ فإن الباحث يجد انحرافاً خطيراً في القيادة العثمانيَّة على المستوى

[1] انظر: الصَّلابي، فقه التمكين في القران الكريم، ص (328).

العسكريِّ، والعلميِّ، فمثلاً: وصل إِلى الصَّدارة العظمى مدحت باشا الماسوني، وولَّى ولايةَ مصر محمَّد علي باشا العلماءُ والفقهاءُ، وإِنَّ المرء ليعجب من اختيار العلماء لرجلٍ مثل (محمَّد علي باشا) ليتولَّى أمورهم، وإِصرارهم عليه في تولي الحكم، أما كان أحدهم أولى به من عسكريٍّ جاهلٍ مغرورٍ، ويبدو: أنَّ العلماء فقدوا ثقتهم في علمهم، وتهيَّبوا النُّزول إِلى الميدان، وتحمُّل المسؤوليَّات العظام؛ لأنَّهم قد ألفوا الرُّكون إِلى حلقات العلم، وتأليف الكتب، ولم يعودوا قادرين على القيام بغير ذلك من مهمَّات ومسؤوليَّات.

ومن الأمور المحزنة الَّتي كانت تقع بين العلماء حدوث المنافسات، والضَّغائن بينهم، واستعانة بعضهم بالحكَّام، واستعداء السُّلطة عليهم، ومتى ما حدث ذلك؛ فإِنَّها تسنح الفرصة للطُّغاة لإِنزال ضرباتهم الموجعة لتقويض صفِّ العلماء، كالخلاف الَّذي وقع بين الشَّيخ (عبد الله الشِّرقاوي) شيخ الأزهر، وبين بعض المشايخ الاخرين حيث ترتَّب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمَّد علي باشا إِلى الشَّيخ الشِّرقاوي بلزوم داره، وعدم الخروج منها،

ولا حتَّى إِلى صلاة الجمعة، وسبب ذلك كما يقول الجبرتي: (أمورٌ، وضغائن، ومنافساتٌ بينه وبين إِخوته.. فأغروا به الباشا، ففعل به ما ذُكر، فامتثل الأمر، ولم يجد ناصراً، وأهمل أمره)[1].

ويصف الشَّيخ مصطفى صبري حال العلماء الَّذين ابتعدوا عن أمور الحكم، ونصح الحكام، وما هي نظرة العلمانيِّين للعلماء، فقال: (والَّذين جرَّدوا الدِّين في ديارنا عن السِّياسة كانوا هم وإِخوانهم لا يرون الاشتغال بالسِّياسة لعلماء الدِّين، بحجَّة: أنَّه لا ينبغي لهم، وينقص من كرامتهم. ومرادهم حكر السِّياسة، وحصرها لأنفسهم، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة، فيقبِّلون أيديهم، ويخيِّلون لهم بذلك: أنَّهم محترمون عندهم، ثمَّ يفعلون ما يشاؤون لدين النَّاس، ودنياهم، محرَّرين عن احتمال أن يجيء من العلماء أمرٌ بمعروفٍ، أو نهيٌ عن منكرٍ إِلا ما بَعُدَ من فضول اللِّسان، أو ما يكمن في القلب، وذلك أضعف الإِيمان.

---

[1] انظر: جبرتي، عجائب الآثار، مرجع سابق، (134/3).

فالعلماء المعتزلون عن السِّياسة، كأنَّهم تواطؤوا مع كلِّ السَّاسة، صالحيهم، وظالميهم، على أن يكون الأمر بأيديهم، ويكون لهم منهم رواتب الإِنعام، والاحترام، كالخليفة المتنازل عن السُّلطة، وعن كل نفوذٍ سياسيٍّ..)[1].

لقد أخلد العلماء في أواخر الدَّولة العثمانيَّة إِلى الأرض، واتَّبعوا أهواءهم، وضعفوا عن القيام بواجباتهم، فكانوا بذلك قدوةً سيِّئةً للجماهير الَّتي ترمقهم، وترقبهم عن قربٍ، ولقد غرق الكثير منهم في متاع الدُّنيا، وأترفوا فيها، وكمِّمت أفواههم بدون سيفٍ، أو سوطٍ، ولكن بإِغداق العطايا عليهم من قبل الباشوات، والحكَّام، ووضعهم في المناصب العالية ذات المرتَّبات الجزيلة، والمزايا العظيمة، الَّتي تكون كفيلةً بإِسكات أصواتهم، وكبح ثورتهم، واعتراضهم[2].

---

[1] انظر: الاتِّجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، (84/2).

[2] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (605/1).

"لقد كان علماء الدِّين دائماً في تاريخ هذه الأمَّة هم قادتُها، وموجهوها، هم ملجؤها كذلك؛ إذا حزبهم أمر، وملاذها عند الفزع.. تتَّجه إليهم؛ لتتلقَّى علم الدِّين منهم، وتتَّجه إليهم؛ ليشيروا عليها في أمورها الهامَّة، وتتَّجه إليهم إذا وقع عليهم ظلمٌ من الحكَّام، والولاة؛ ليسعوا إلى رفع الظُّلم عنهم، بتذكير أولئك الحكَّام، والولاة بربِّهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر.. وكان العلماء يُضطهدون من قبل ذوي السُّلطان أحياناً، ويُلقون في السُّجون أحياناً، ويُؤذون في أبدانهم، وأموالهم، وكراماتهم أحياناً، ولكنَّهم يصمدون لهذا، تقديراً لمسؤوليَّاتهم أمام الله تعالى.

وكما كان العلماء هم قادة الأمَّة ومرشدوها في الأمور السِّياسيَّة، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، والفكريَّة، والرُّوحيَّة، وكانوا كذلك دعاتها إلى الجهاد كلَّما حدث على الأمَّة عدوان.. يذكِّرونها بالله، واليوم الآخر، وبالجنَّة الَّتي تنتظر المجاهدين الصَّادقين، وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم، بل يقودون الجيوش بأنفسهم في بعض الأحيان.

تلك كانت مهمَّة علماء الدِّين، والدِّين حيٌّ في النُّفوس.. وفي التَّاريخ نماذج عديدةٌ لعلماء أرضوا ربَّهم، وأدَّوا أمانتهم، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، وصبروا على ما أصابهم في سبيل الله، فما ضعفوا، وما استكانوا.. فأين كان العلماء في تلك الفترة الَّتي نحن بصددها من التَّاريخ؟

هل كانوا في مكان القيادة الَّذي عهدتهم الأمَّة فيه إِلى عهد ليس ببعيدٍ...؟

هل كانوا حماة الأمَّة من العدوان؟ وحماتها من الظُّلم الواقع عليهم من ذوي السُّلطان؟

هل كانوا هم الَّذين يطالبون للأمَّة بحقوقها السِّياسيَّة، وحقوقها الاجتماعيَّة، وحقوقها الاقتصاديَّة؟

هل كانوا هم الَّذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقومون إِلى الإِمام الجائر، فيأمرونه، وينهونه، قتلهم، أم لم يقتلهم؟

أم كان كثيرٌ منهم قد استعبدوا أنفسهم للسُّلطان، ومشوا في ركابه، يتملَّقونه، ويباركون مظالمه، فيمدُّونه في الغيِّ، بينما البقيَّة الصَّالحة منهم قد قبعت في بيوتها، أو انزوت في الدَّرس، والكتاب، تحسب أنَّ مهمَّتها قد انتهت؛ إِذا لقنت النَّاس العلم.. وما نريد أن نظلمهم، فقد كان منهم – ولا شكَّ – من صدع بكلمة الحقِّ، ومنهم من ألقى بالمنصب تحت قدميه حين أحسَّ أنَّه يستعبده لأولي السُّلطان، أو يلجمه عن كلمة الحق.. ولكنَّهم قلَّةٌ قليلةٌ بين الكثرة الغالبة الَّتي راحت تلهث وراء المتاع الأرضيِّ، أو تقبع داخل الدَّرس، والكتاب، على ما فيها من جوانب القصور.."[1].

وكان من الطَّبيعيِّ أن تصاب العلوم الدِّينيَّة في هذه الفترة بالجمود، والتحجُّر نتيجةً لعدَّة عوامل أعطت أثرها عبر القرون المتواليَّة، ومن هذه العوامل:

1 . الاهتمام بالمختصرات:

---

[1] انظر: قطب، واقعنا المعاصر، مرجع سابق، ص (327).

قام بعض العلماء باختصار المؤلَّفات الطَّويلة بغية تسهيل حفظها لطلبة العلم؛ حيث غدا الحفظ هو الغاية عند العلماء، والطلاَّب، حيث ضعفت ملكة الفهم، والاستنباط عندهم، (فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون مؤلَّفاتهم في متونٍ موجزةٍ، ويأخذون هذه الأقوال مجرَّدةً من أدلَّتها من الكتاب، والسُّنَّة، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها)[1].

يقول الشَّيخ عبد الحميد بن باديس ناقداً للطَّريقة في تدريس الفقه: (واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهيَّة مجرَّدةً بلا نظرٍ، جافةً بلا حكمةٍ، وراء أسوارٍ من الألفاظ المختصرة تفني الأعمار قبل الوصول إليها)[2].

ويذكر الإمام الشَّوكاني اهتمام النَّاس في عصره بهذه المختصرات، والخطورة الَّتي تنطوي على ذلك، فيقول: (قد جعلوا غاية

---

(1) انظر: المبارك، المجتمع الإسلامي المعاصر، مرجع سابق، ص (56).

(2) انظر: د. عمَّار الطَّالبي، ابن باديس حياته، وآثاره: دار الغرب الإسلامي، بيروت الطَّبعة الثَّانية 1403هـ/1983م، (108/1).

مطالبهم، ونهاية مقاصدهم العلم بمختصرٍ من مختصرات الفقه؛ الَّتي هي مشتملةٌ على ما هو من علم الرَّأي والرِّواية، والرأي أغلب، ولم يرفعوا إِلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم، فصاروا جاهلين بالكتاب، والسُّنَّة، وعلمهما جهلاً شديداً؛ لأنَّه تقرَّر عندهم: أنَّ حكم الشَّريعة منحصرٌ في ذلك المختصر، وأنَّ ما عداه فضلةٌ، أو فضول، فاشتدَّ شغفهم به، وتكالبهم عليه، ورغبوا عمَّا عداه، وزهدوا فيه زهداً شديداً)[1].

2 . الشُّروح، والحواشي، والتَّقريرات:

يقول الشَّوكاني – رحمه الله – الَّذي درس، ودرَّس الكثير من هذه الشُّروح، والحواشي في مختلف العلوم الدِّينيَّة، واللُّغويَّة منتقداً لها: "مع أنَّ فيها جميعاً ما لا تدعو إِليه الحاجة بل غالبها كذلك، ولا

(1) انظر: أدب الطَّلب، ص (59).

سيَّما تلك التَّدقيقات الَّتي في شروحها، وحواشيها، فإنَّها عن علم الكتاب، والسُّنَّة بمعزلٍ"[1].

لقد كانت المؤلَّفات على كثرتها من شروحٍ، وحواشٍ وغير ذلك من الأغلال الَّتي كبَّلت العقول، وأدَّت إلى جمود العلوم عبر قرون عديدةٍ، وكانت توجد بعض الحواشي، والشُّروح المفيدة، ولكنَّها لا تكاد تذكر، وكانت مناهج التَّعليم في تلك الفترة بعيدةً كلَّ البعد عن منهج أهل السُّنَّة والجماعة، وكانت المعاهد الإسلاميَّة كلُّها – تقريباً – بعيدةً عن ذلك المنهج الإسلاميِّ الأصيل.

فالأزهر مثلاً – وهو المعهد الإسلاميُّ الكبير، والجامعة العتيقة – كان مركزاً لعلوم المتكلِّمين البعيدة عن روح الإسلام، ومبادئه، يقول أحد الدَّارسين في الأزهر عن علم الكلام:

"من العلوم الَّتي لم أنتفع بدراستها في الأزهر على الإطلاق علم الكلام، فقد درسته بالأزهر عدَّة سنواتٍ، ولكنِّي لم أعرف منه

---

[1] انظر: محمد بن علي الشَّوكاني، البدر الطَّالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السَّابع، دار المعرفة، بيروت، (86/1).

شيئاً عن الله ذا بالٍ، وإنَّما انغمست في اصطلاحاتٍ زادت تفكيري غموضاً، واضطراباً حتَّى تمنَّيت إيمان العوام"[1].

لقد أصاب المناهج الإسلاميَّة في تلك الفترة بالإضافة إلى الجمود موجةٌ من الجفاف؛ حيث: "إنَّ العصور المتأخِّرة بَعُدت بعداً كبيراً عن روح الإسلام، واهتمَّت بالجسم، والمادَّة؛ حتَّى أصبحت الدراسات الإسلاميَّة دراسةً لا حياة فيها، ولا روح، وجرت عدوى هذه الدِّراسات إلى جميع أبواب الفقه، حتَّى الأبواب الَّتي كانت يجب أن تكون دراسة الرُّوح أهمَّ عنصرٍ فيها"[2].

3 . الإجازات:

من عوامل تدهور الحياة العلميَّة في تلك الفترة التَّساهل في منح الإجازات؛ فكانت تُعطى في العصر المتأخِّر للدولة العثمانيَّة جزافاً؛ إذ كان يكفي أن يقرأ الطَّالب أوائل كتاب، أو كتابين ممَّا يدرِّسه الأستاذ؛ حتَّى ينال إجازة بجميع مرويَّاته، وكثيراً ما أُعطيت

---

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (42/2 و43).

[2] انظر: قطب، المجتمع الإسلاميُّ المعاصر، مرجع سابق، ص (210).

لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة. فكان العالم في القاهرة يبعث إِلى طالب في مكَّة بالإِجازة دون أن يراه، أو يختبره[1].

فكان ذلك التَّساهل من الأمور الَّتي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم كما كان ينبغي، وهكذا كان التَّساهل في منح الإِجازات عاملاً مهمَّاً من عوامل انحدار المستوى التَّعليمي، وضعف العلوم الشَّرعيَّة؛ حيث أضحى الهدف عند كثيرٍ من المنتسبين إِلى العلم حيازة أكبر عددٍ من هذه الإِجازات الصُّوريَّة؛ الَّتي لم يكن لها في كثيرٍ من الأحيان أيُّ رصيدٍ علميٍّ في الواقع[2].

4 ـ وراثة المنصب العلمي:

أصبحت المناصب العلميَّة في أواخر الدَّولة العثمانيَّة بالوراثة في الأمور العلميَّة المهمَّة كالتَّدريس، والفتوى، والإِمامة، وحتَّى القضاء، فقد صارت تلك المناصب تورث بموت من كانوا يتولَّوْنها

---

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (59/2).

[2] المصدر السَّابق نفسه، (64/2).

تماماً كما تورث الدُّور، والضِّياع، والأموال، فكثيراً ما كان يحدث أن يموت شيخٌ يدرِّس عليه، فلا يوارى التراب حتَّى ينتقل منصبه، وكرسيُّه إِلى ولده، أو أخيه، أو أحد أقاربه، وقد يكون الوارث قليل الفهم مُزْجَى البضاعة في العلم، ولكن لا بدَّ للتَّصدر للإِقراء، والتَّدريس، وعدم إِخلاء الكرسيِّ؛ الَّذي قد يتربَّع عليه غريبٌ عن أهل المتوفَّى؛ حتَّى ولو كان جديراً بخلافته في منصبه الَّذي رحل عنه[1].

يقول المؤرِّخ التُّركيُّ أحمد جودت المتوفَّى عام 1312هـ[2] متحدِّثاً عن تلك الظَّاهرة السَّيِّئة في الدَّولة العثمانيَّة: "وصار أبناء الصُّدور، والقضاة ينالون وظيفة التَّدريس، وهم أحداثٌ، وأطفالٌ، ويترقَّون لذلك في الوظائف، حتَّى إِنَّ الواحد منهم لتأتيه نوبته في المولويَّة[3] وما طرَّ شاربه، ولا اخضرَّ عِذاره. وكان ينال التَّدريس

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) كان وزيراً في البلاط العثماني، وكتب تاريخ جودت بالتُّركيَّة في 12 مجلداً.

(3) المولويَّة: ثاني رتبةٍ في القضاء العثماني بعد رتبة قاضي العسكر.

أيضاً كلُّ ذي وجاهةٍ واعتبارٍ، حتَّى صارت المراتب، والمناصب العلميَّة تؤخذ بالإرث، فسهل على الوزراء، ورجال الدَّولة تقليدها لأبنائهم، وغيرهم، فازدحم عليها الغوغاء، وصار الجهَّال يموج بعضهم في بعضٍ، والتبس الأمر، وفسد أيَّ فساد)[1].

ويقول (محمَّد كرد علي) في حديثه عن الأحوال العلميَّة في الشَّام، وتردِّيها في العصر العثماني: (وقد قويت في هذا العصر قاعدة «خير الأب للابن». وكان المفتي (أبو السُّعود) من مشايخ الإسلام في الآستانة أوَّل من ابتدعها، وأخرجها للنَّاس، فأصبح التَّدريس، والتَّولية، والخطابة، والإمامة، وغيرها من المسالك الدِّينية توسد إلى الجهلة بدعوى: أنَّ آباءهم كانوا علماء، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم، ومناصبهم، وإن كانوا جهلةً، كما ورثوا حوانيتهم، وعقارهم، وفرشهم، وكتبهم، بل بلغت الحال بالدَّولة إذ ذاك أن كانت تولِّي القضاء الأمِّيين، وكم من أميٍّ غدا في (دمشق)

---

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلمية، مرجع سابق، (68/2).

و(حلب) و(القدس) و(بيروت) قاضي القضاة، أمَّا في الأقاليم، فربما كان الأميُّون أكثر من غيرهم..)[1].

لقد كانت لتلك العادة السَّيِّئة آثارٌ وخيمةٌ في انحدار مستوى التَّعليم، وضعف الحياة العلميَّة عند المسلمين، وذلك بتوارث تلك المناصب الدِّينية، وحكرها في أسرٍ معيَّنةٍ، وبالتَّالي أثَّرت تلك العادة في إيجاد علماء ربَّانيِّين متجرِّدين لدين الله تعالى همُّهم إحقاق العدل، ونصرة المظلوم، وإعزاز الدِّين.

وقد أدى غياب القيادة الربانية بطبيعة الحال إلى:

أولاً: رفض فتح باب الاجتهاد:

في أواخر الدَّولة العثمانيَّة أصبحت الدَّعوى بفتح باب الاجتهاد تهمةً كبيرةً تصل إلى الرَّمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلِّدين، والجامدين إلى حدِّ الكفر، وكان من التُّهم الَّتي وجَّهها خصوم الدَّعوة السَّلفيَّة إلى علمائها دعوى الاجتهاد، وكانت تهمةً شديدةً

[1] انظر: محمَّد كرد علي، خطط الشَّام، دار العلم للملايين، بيروت، 1390هـ. (70/3).

في ذلك الزَّمن، مع أنَّ أحداً منهم لم يقل بذلك، وكانت الدَّعوة إِلى قفل باب الاجتهاد توارثها المتعصِّبون على مرِّ العصور، وأصبح حرصهم في أواخر الدَّولة العثمانيَّة ظاهراً، ونافحوا من أجل عدم فتحه، ومقاومة كلِّ من يحوم حوله، ممَّا شجع المتغرِّبين بالسَّعي الدَّؤوب لاستيراد المبادئ والنُّظم من أوربة، ولقد ترتَّب على إِغلاق باب الاجتهاد آثارٌ خطيرةٌ لا تزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين إِلى يومنا هذا.

فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته.. فماذا يحدث؟

يحدث أحد أمرين: إِما أن تجمد الحياة، وتتوقف عن النموِّ؛ لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها. وإِما أن تخرج على القوالب المصبوبة، تخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة؛ لأن هذا الظل لم يمدَّ بالاجتهاد حتى يعطيها.

وقد حدث الأمران معاً، الواحد تلو الآخر.. الجمود أوَّلاً، ثمَّ الخروج بعد ذلك من دائرة الشَّريعة[1].

لقد عانت الأمَّة من قفل باب الاجتهاد، وكانت الدَّولة العثمانيَّة في أواخر عهدها لم تعط هذا الباب حقَّه، وكانت عجلة الحياة أسرع، وأقوى من الجامدين، والمقلِّدين الَّذين ردُّوا كلَّ جديدٍ، وخرج الأمر من أيديهم، "وهكذا توقَّفت الحركة العقليَّة عند المسلمين إزاء كلِّ جديدٍ تلده الحياة، والحياة ولودٌ، لا تتوقَّف عن الولادة أبداً، فهي تلد كلَّ يومٍ جديداً لم تكن تعرفه الإنسانيَّة من قبل.. وكان من هذا أن مضى النَّاس – من غير المسلمين – يواجهون كلَّ جديدٍ، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديداً.. وهكذا سار النَّاس – من غير المسلمين – قدماً في الحياة، ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم؛ الَّذي كان عليه الآباء، والأجداد من بضعة قرون"[2]. واستمرَّ التَّعصُّب المذهبي في

---

[1] انظر: قطب، واقعنا المعاصر، مرجع سابق، ص (159).

[2] انظر: د. عبد الكريم الخطيب، سد باب الاجتهاد وما ترتَّب عليه، ص (144).

إِضعاف المستوى التَّعليميِّ، وانحدار العلوم، وجمودها، وتكبيل العقول، والأفهام، والحجر عليها. بالإِضافة إِلى ما تسبَّب فيه من تفريق كلمة المسلمين، وإِفساد ذات بينهم، وزرع العداء، والشِّقاق بين أفرادهم، وجماعاتهم، وبعد أن تحزَّبوا طوائف وجماعاتٍ، كلٌّ طائفةٍ تناصر مذهبها، وتعادي غيرها من أجله، وفي تلك الفترة تفاقم هذا التعصُّب، وعمَّ الأقطار الإِسلاميَّة، ولم يسلم منه قطرٌ، ولا مصر؛ فالجامع الأزهر كان ميداناً رحباً للصِّراعات المذهبيَّة خصوصاً بين الشَّوافع، والأحناف، وذلك من أجل التَّنافس الشَّديد على مشيخة الأزهر[1].

إِنَّ العصبية المذهبيَّة أوجدت حواجز كثيفةً بين المسلمين في القرون الأخيرة، فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإِسلاميَّة اجتماعيَّاً، وسياسياً، وأورثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء

[1] انظر: الجبرتي، عجائب الآثار، مرجع سابق، (242/2).

الإِسلام على اختلاف أنواعهم، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين، والإِسلام[1].

لقد كان التعصُّب المذهبي منحرفاً عن منهج الله تعالى، وزاد هذا الانحراف عمقاً في حجر العقول، وجمود العلوم، وتفتيت الصَّفِّ الإِسلامي ممَّا كان له أعظم الأثر في ضعف الدَّولة العثمانيَّة، وانحطاطها، وانشغالها بمشاكلها الدَّاخلية في الوقت الَّذي كانت المؤامرات قد أحاطت بها، وشرع الصَّليبيُّون في الإِجهاز على الرَّجل المريض.

ثانياً: انتشار الظُّلم في الدَّولة:

إِنَّ الظُّلم في الدَّولة كالمرض في الإِنسان يعجِّل في موته بعد أن يقضي المدَّة المقدَّرة له وهو مريضٌ، وبانتهاء هذه المدَّة يحين أجل موته، فكذلك الظُّلم في الدَّولة يعجِّل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثارٍ مدمِّرةٍ تؤدِّي إِلى هلاكها، واضمحلالها خلال مدَّةٍ معيَّنةٍ يعلمها الله، هي الأجل المقدَّر لها، أي: الَّذي قدَّره الله لها بموجب

---

[1] انظر: الزهراني، الانحرافات العقديَّة والعلميَّة، مرجع سابق، (86/2).

سنَّته العامَّة الَّتي وضعها لآجال الأمم بناءً على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظُّلم؛ الَّتي يظهر أثرها، وهو هلاكها بعد مضيِّ مدَّةٍ محدَّدةٍ يعلمها الله[1]. قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَل فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَة وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ **[الأعراف:34]**. قال الآلوسي في تفسيره لهذه الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَل ﴾ أي: ولكلِّ أمَّةٍ من الأمم الهالكة أجلٌ؛ أي: وقتٌ معيَّنٌ مضروبٌ لاستئصالهم[2]. ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكَّداً، ولكن وقت حلوله مجهولٌ لنا؛ أي: أنَّنا نعلم يقيناً: أنَّ الأمَّة الظَّالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنَّة الله تعالى في الظُّلم، والظَّالمين، ولكنَّنا لا نعرف وقت هلاكها بالضَّبط، فلا يمكن لأحدٍ أن يحدِّد الأيَّام، ولا السِّنين، وهو محدَّدٌ عند الله تعالى[3].

---

[1] انظر: عبد الكريم زيدان، السُّنن الإلهيَّة في الأمم، والجماعات، والأفراد، ص (121).

[2] انظر: تفسير الآلوسي، (112/8).

[3] انظر: زيدان، السُّنن الإلهيَّة، مرجع سابق، ص (121).

إِنَّ سُنَّة الله مطَّردةٌ في هلاك الأمم الظَّالمة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِم وَحَصِيد * وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيب * وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيم شَدِيدٌ﴾ [هود: 100 . 102].

إِنَّ الآية الكريمة تبيِّن أنَّ عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدَّم من الأمم الظَّالمة، بل إِنَّ سنَّته تعالى في أخذ كلِّ الظَّالمين سنَّةٌ واحدةٌ، فلا ينبغي أن يظنَّ أحدٌ أنَّ هذا الهلاك مقصورٌ على أولئك الظَّلمة السَّابقين؛ لأنَّ الله تعالى لمّا حكى أحوالهم؛ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾. فبيَّن الله تعالى: أنَّ كلَّ من شارك أولئك المتقدِّمين في أفعالهم؛ الَّتي أدَّت إِلى هلاكهم؛ فلا بدَّ أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشَّديد؛ فالآية تحذِّر من وخامة الظُّلم. إِنَّ الدَّولة الكافرة قد تكون عادلةً بمعنى أنَّ حكامها لا يظلمون النَّاس، والنَّاس أنفسهم لا يتظالمون

فيما بينهم، فهذه الدَّولة مع كفرها تبقى؛ إِذ ليس من سنَّته تعالى إِهلاك الدَّولة بكفرها فقط، ولكن إِذا انضمَّ إِلى كفرها ظلم حكَّامها للرَّعيَّة، وتظالم النَّاس فيما بينهم[1] قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [سورة هود: **117**].

قال الإِمام الرَّازي في تفسيره: "إِنَّ المراد من الظُّلم في هذه الآية الشِّرك. والمعنى: أنَّ الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين؛ إِذ كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم بعضاً على الصَّلاح، وعدم الفساد"[2].

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى ﴿بِظُلۡمٖ﴾: بشركٍ، وكفرٍ. ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق. ومعنى الآية: إِنَّ الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده؛ حتى ينضاف إِليه

---

[1] انظر: زيدان، السُّنن الإِلهية، مرجع سابق، ص(122).

[2] انظر: الرازي، التفسير، (16/18).

الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال، والميزان، وقوم لوطٍ باللِّواط[1].

قال ابن تيميَّة في هلاك الدَّولة الظَّالمة وإن كانت مسلمة: "وأمور النَّاس إنَّما تستقيم مع العدل؛ الَّذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر ممَّا تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثمٍ، ولهذا قيل: إنَّ الله يقيم الدَّولة العادلة وإن كانت كافرةً، ولا يقيم الظَّالمة وإن كانت مسلمةً، ويقال: الدُّنيا تدوم مع العدل، والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك: أنَّ العدل نظام كلِّ شيءٍ، فإذا أقيم أمر الدُّنيا بالعدل؛ قامت، وإن لم تقم بالعدل؛ لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة"[2].

لقد قام بعض الباشوات بأفعالٍ قبيحةٍ، وسفكوا الدِّماء، واغتصبوا الأموال؛ فهذا إبراهيم باشا المعروف بدالي أحد وزراء السُّلطان مراد الثَّالث، وكان أمير الأمراء في ديار بكرٍ بأسرها؛ ففتك فيها،

---

[1] انظر: القرطبي، التفسير، (114/9).

[2] انظر: عبد الحليم ابن تيمية، رسالة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ص (40).

وظلم أهلها، وأظهر من أنواع الظُّلم أشياء مستكرهةً جدَّاً، منها الاعتداء على الأعراض، ونهب الأموال، وفعل الأفاعيل العظيمة، ولـمّا وصل الأمر للسُّلطان، وعقد مجلس القضاء، وهاب النَّاس أن يشهدوا عليه، لم يستطع القاضي أن يدقِّق في الدَّعوة، لأنَّ أخته كانت عند السُّلطان مراد مقبولةٌ جدَّاً، وانصرف خصماؤه، وقرَّره السُّلطان في ديار بكرٍ، فذهب إِليها ناوياً على إِهلاك كلِّ من اشتكى عليه، وأهلك منهم خلقاً تحت العذاب، ووصل الأمر إِلى أن ثار عليه أهل البلد، وقاموا عليه قومة رجلٍ واحدٍ، فتحصَّن في القلعة، وصار يقذف القذائف بالمدافع على أهل المدينة حتَّى قتل منهم خلقاً كثيراً[1].

وما قام به الباشا محمَّد علي من ظلم أهل مصر، وأهل الشَّام، والحجاز معروفٌ، وقد ذكرناه في هذا الكتاب، وقد اشتدَّ ظلم الأتراك للعرب، والأكراد، والألبان مع مجيء الاتِّحاد والتَّرقي

---

[1] انظر: محمَّد بن حسن بن عقيل موسى، المختار المصون من أعلام القرون، دار الأندلس الخضراء للنَّشر والتَّوزيع، جدَّة، الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م، (2/916، 917).

للحكم، بل قامت تلك العصابة بظلم النَّاس في داخل تركيا، وخارجها، وقد ذكرنا ما تعرَّض له السُّلطان عبد الحميد الثاني من ظلمهم، وعسفهم، وجورهم؛ فجرت فيهم سنَّة الله الَّتي لا تتبدَّل، ولا تتغيَّر، ولا تحامل، فانتقم من الظَّالمين، وجعل بأسهم فيما بينهم، وزالت دولة الخلافة العثمانيَّة من الوجود.

ثالثاً: الاختلاف والفرقة:

إنَّ سنَّة الله تعالى ماضيةٌ في الأمم، والشُّعوب لا تتبدَّل، ولا تتغيَّر، ولا تحامل، وجعل الله - سبحانه وتعالى - من أسباب هلاك الأمم الاختلاف، وقال صلى الله عليه وسلم: "فإنَّ من كان قبلكم اختلفوا، فهلكوا" وفي رواية: "فأهلكوا"[1].

وعند ابن حبَّان، والحاكم عن ابن مسعودٍ: "فإنَّما أهلك من كان قبلكم الاختلاف".

---

[1] انظر: البخاري، الجامع الصحيح، (101/9، 102).

قال ابن حجر العسقلانيُّ: وفي الحديث والَّذي قبله الحضُّ على الجماعة، والألفة، والتَّحذير من الفرقة، والاختلاف[1].

وقال ابن تيميَّة – رحمه الله –: "وأمرنا الله تعالى بالاجتماع، والائتلاف، ونهانا عن التفرُّق، والاختلاف"[2].

والاختلاف المهلك للأمَّة هو الاختلاف المذموم، وهو الَّذي يؤدِّي إلى تفريقها، وتشتُّتها، وانعدام التناصر فيما بين المختلفين، كلُّ طرفٍ يعتقد ببطلان ما عند الطَّرف الاخر، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً[3].

"وإنَّما كان الاختلاف علَّةً لهلاك الأمَّة كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقاً شتى، ممَّا يضعف الأمة؛ لأنَّ قوَّتها، وهي مجتمعةٌ أكبر من قوَّتها وهي متفرِّقةٌ، وهذا الضَّعف العامُّ

---

[1] المصدر السَّابق نفسه، (102/9).

[2] انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (116/19).

[3] انظر: زيدان، السُّنن الإلهية، ص (139).

الَّذي يصيب الأمَّة بمجموعها يجرِّئ العدوَّ عليها، فيطمع فيها جميعها، ويحتلُّ أراضيها، ويستولي عليها، ويستعبدها، ويمسخ شخصيَّتها، وفي ذلك انقراضها، وهلاكها"[1].

إنَّ من الدُّروس المهمَّة في هذه الدِّراسة التَّاريخيَّة: أنَّ توقِّي الهلاك بتوقِّي الاختلاف المذموم؛ لأنَّ الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدَّولة العثمانيَّة، وهلاكها، واندثارها. وإنَّ من أخطر ما نعاني منه الآن الخلاف في صفوف الإسلاميِّين القائمين بواجب الدَّعوة إلى الله تعالى، وهذا الخلاف يؤدِّي إلى ضعف الأمَّة؛ إذا لم تأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشَّيخ عبد الكريم زيدان: "والاختلاف كما يُضعف الأمَّة، ويهلكها يُضعف الجماعة المسلمة الَّتي تنهض بواجب الدَّعوة إلى الله، ثمَّ يهلكها، لهذا كان شرُّ ما تُبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها، بحيث يجعلها فرقاً شتَّى، بحيث ترى كلُّ فرقةٍ أنَّها على حقٍّ وصوابٍ، وأنَّ غيرها على خطأٍ وضلالٍ،

---

[1] المصدر السَّابق نفسه، ص (139).

وتعتقد كلُّ فرقةٍ أنَّها هي الَّتي تعمل لمصلحة الدَّعوة، وهيهات أن تكون الفرقة، والتَّشتُّت، والاختلاف المذموم في مصلحة الدَّعوة، أو أن مصلحة الدَّعوة تأتي عن طريق التَّفريق! ولكنَّ الشَّيطان هو الَّذي يزيِّن الفرقة، والتَّفريق في أعين المتفرِّقين المختلفين، فيجعلهم يعتقدون: أنَّ اختلافهم، وتفرُّقهم في مصلحة الدَّعوة.

والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حدِّ إِضعاف الجماعة، وإِنَّما يضعف تأثيرها في النَّاس، وتجعل المغرضين ينفثون باطلهم في النَّاس، ويقولون: جماعة سوء تأمر النَّاس بأحكام الإِسلام، والإِسلام يدعو إِلى الألفة، والاجتماع، وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه؛ إِذ هي متفرقةٌ مختلفةٌ فيما بينها، كلُّ فرقةٍ تعيب الأخرى، وتدَّعي أنَّها وحدها على الحقِّ. ثمَّ يؤول الأمر إِلى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع، ثمَّ اضمحلالها، واندثارها، وقيام جماعاتٍ جديدةٍ مكانها، هي فرق المنفصلين عنها. ووقائع التَّاريخ البعيد، والقريب تؤيِّد ما نقول"[1].

---

[1] انظر: زيدان، السُّنن الإِلهيَّة، مصدر سابق، ص (140، 141).

لقد ابتليت الدَّولة العثمانيَّة خصوصاً في أواخر عهدها بالاختلاف، والتَّفريق بين الزُّعماء، والسَّلاطين، فقد حاول بعض الحكَّام المحلِّيِّين الاستقلال الذَّاتي عن الحكومة المركزيَّة بإطالة فترة حكمهم، ومحاولة تأسيس أسرٍ محلِّيَّة (المماليك في العراق، آل العظم في سورية، المعنيُّون، والشِّهابيُّون في لبنان، ومحمَّد علي في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزَّار في عكا، علي بك الكبير في مصر، القرامليُّون في ليبيا)[1] وهذا الصِّراع بين الحكَّام المحلِّيِّين، والدَّولة العثمانيَّة ساهم في إضعافها، ثمَّ زوالها، وسقوطها.

ولقد ذكر بعض المؤرِّخين أسباب السُّقوط، وحدث لهم تخليط بين الأسباب في السُّقوط، وبين الآثار المترتِّبة على الابتعاد عن شرع الله تعالى. إنَّ الحديث عن الضَّعف السِّياسيِّ، والحربيِّ، والاقتصاديِّ، والعلميِّ، والأخلاقيِّ، والاجتماعيِّ، وكيفية القضاء على هذا الضَّعف، والحديث عن الاستعمار، والغزو الفكري، والتَّنصير، وكيفيَّة مقاومتها لا يزيد على محاولة القضاء على تلك الأعراض المزعجة، ولكن لا يمكنه أبداً أن ينهض بالأمَّة الَّتي أصيبت بالخواء العقديِّ، وما لم يتمَّ محاربة الأسباب الحقيقيَّة،

---

[1] انظر: د. إسماعيل ياغي، العالم العربي في التَّاريخ الحديث، ص (94).

والقضاءِ عليها؛ فإنَّه لا يمكن بحالٍ من الأحوال القضاء على تلك الآثار الخطيرة.

إنَّ الآثار كانت متشابكةً، ومتداخلةً، يؤثِّر كلٌّ منها في الآخر تأثيراً عكسيَّاً، فالضَّعف السِّياسيُّ مثلاً يؤثِّر في الضَّعف الاقتصاديِّ، ويتأثَّر به، وهكذا.

إنَّ كثيراً من المحاولات الَّتي بذلت في العالم الإسلامي من أجل إعادة دولة الإِسلام، وعزَّته، وقوَّته ركَّزت على الآثار، ولم تعالج الأسباب الحقيقيَّة الَّتي كانت خلف ضياع الدَّولة العثمانيَّة، وضعف الأمَّة، وانحطاطها.

إنَّ جهود النَّصارى، واليهود، والعلمانيَّة ما كانت لتؤثِّر في الدَّولة العثمانيَّة إِلا بعد أن انحرفت عن شرع الله، وفقدت شروط التَّمكين، وأهملت أسبابه المادِّيَّة، والمعنويَّة، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَة لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡء وَهُدى وَرَحۡمَة لِّقَوۡم يُؤۡمِنُونَ ﴾ **[يوسف:111]** .

المبحث الرابع: التَّرف والانغماس في الشَّهوات:

قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود:116]. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ [هود:116]. أراد بالَّذين ظلموا: تاركي النَّهي عن المنكرات؛ أي: لم يهتمُّوا بما هو ركنٌ عظيمٌ من أركان الدِّين، وهو الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وإنَّما اهتمُّوا بالتَّنعُّم، والتَّرف، والانغماس في الشَّهوات، والتَّطلُّع إلى الزَّعامة، والحفاظ عليها والسَّعي لها، وطلب أسباب العيش الهنيء[1].

وقد مضت سنَّة الله في المترفين الَّذين أبطرتهم النِّعمة، وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك، والعذاب.

قال تعالى: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ * لَا

[1] انظر: زيدان، السُّنن الإلهيَّة في الأمم، والجماعات، والأفراد، ص (186).

تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡ‍َٔلُونَ﴾ **[الأنبياء: 11 . 13]**.

ومن سنَّة الله تعالى جعل هلاك الأمَّة بفسق مترفيها، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرا﴾ **[الإسراء:16]**.

وجاء في تفسيرها: "وإذا دنا وقت هلاكها؛ أمرنا بالطَّاعة مترفيها، أي: متنعميها، وجبَّاريها، وملوكها، ففسقوا فيها، فحقَّ عليها القول، فأهلكناها. وإنَّما خصَّ الله تعالى المترفين بالذِّكر مع توجُّه الأمر بالطَّاعة إلى الجميع؛ لأنَّهم أئمَّة الفسق، ورؤساء الضَّلال، وما وقع من سوئهم إنَّما وقع باتِّباعهم، وإغوائهم، فكان توجُّه الأمر إليهم آكد"(1).

وحدث في زمن السُّلطان محمَّد بن إبراهيم: "زُيِّنت دار الخلافة ثلاثة أيَّام، وكان السلطان محمَّد؛ إذ ذاك ببلدة سلستره بروم إيلي،

(1) انظر: الألوسي، التفسير، (42/15).

فكتب إِلى قائمقام الوزير بالقسطنطينيَّة عبدي باشا النيشاني: إنه يريد القدوم إِلى دار المملكة، وإِنَّه لم يتَّفق له رؤية زينةٍ بها مدَّة عمره، وأمره بالنِّداء لتهيئة زينةٍ أخرى إِذا قدم، فوقع النِداء قبل قدوم السُّلطان بأربعين يوماً، وتهيَّأ النَّاس للزِّينة، ثمَّ قدم السُّلطان، فشرعوا في التَّزيين، وبذلوا جهدهم في التأنُّق فيها، واتَّفق أهل العصر على أنَّه لم يقع مثل هذه الزِّينة في دَوْرٍ من الأدوار، وكنت الفقير إِذ ذاك بقسطنطينيَّة وشاهدتها، ولم يبق شيءٌ من دواعي الطَّرب إِلا صُرفت إِليه الهمم، ووجِّهت إِليه البواعث، واستغرق النَّاس في اللَّذة والسُّرور، واستوعب جميع الات النَّشاط، والحبور، وفشت المناهي، وعلمت العقلاء: أنَّ هذا الأمر كان غلطاً، وأن ارتكابه كان جرماً عظيماً، وما أحسب ذلك إِلا نهاية السَّلطنة، وخاتمة كتاب السَّعادة، والميمنة، ثمَّ طرأ الانحطاط، وشوهد النُّقصان، وتبدل الرِّبح بعدها بالخسران.."[1].

[1] انظر: محمَّد بن حسن بن عقيل موسى، المختار المصون من أعلام القرون، دار الأندلس الخضراء للنَّشر والتَّوزيع، جدَّة، الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م، (1163/2، 1164).

وفي سنة تسعين وتسعمئة للهجرة احتفل السُّلطان مراد بن سليم الثَّاني بختان ولده السُّلطان محمَّد، ووضع لذلك فرحاً لم يقع في زمن أحدٍ من الخلفاء، والملوك، وامتدَّت الولائم، والفرحة، واللَّهو والطَّرب مدَّة خمسةٍ وأربعين يوماً، وجلس للفرجة في دار إبراهيم باشا بمحلَّة «آت ميدان» وأغدق النِّعم العظيمة، ورأيت في تاريخ الكبريّ: أنَّه جعل صواني صغاراً من ذهبٍ وفضَّةٍ، وملأ الذَّهب بالفضَّة، والفضَّة بالذَّهب، وألقى ذلك لأرباب الملاهي، وغيرهم من طالبي الإحسان[1]

وهذا انحرافٌ خطيرٌ عن المنهج الَّذي سارت عليه الدَّولة في زمن قوَّتها، وصولتها، وتمكينها، وكانت من وصايا محمَّد الفاتح لولي عهده "واحرس أموال بيت المال من أن تتبدَّد"، "ولا تصرف أموال الدَّولة في ترفٍ، أو لهوٍ، وأكثر من قدر اللُّزوم؛ فإنَّ ذلك من أعظم أسباب الهلاك"، فكان من الطَّبيعي بعد هذا الانحراف الخطير، والانغماس في التَّرف، واللَّهو، والشَّهوات أن تزول الدَّولة بعد ضياع مقوِّمات بقائها.

---

(1) المصدر السَّابق نفسه، 2/1154-1155.

المبحث الخامس: السُّنن الإلهية في التبدل والتغيير الحضاري:

تجتمع العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، وتعلب دورها في اضمحلال الدول وسقوطها، وإن سنة الله في الأفراد والأمم والحضارات تتدرج في قيامها وازدهارها وانهيارها، وهذا حال الدولة العثمانية، فبالإضافة للأسباب سالفة الذكر، فقد أسهمت الظروف الدولية والتنافس الاستعماري (الغربي) على أراضي الدولة العثمانية وأملاكها ومضائقها وأماكنها المقدسة وأراضيها الخصبة، وعملت على استغلال نقاط الضعف والثغرات المعنوية والمادية داخل المجتمعات المحلية الخاضعة للحكم العثماني على امتداد سبعة قرون.

أولاً: سنن الله تعالى وقوانينه الثابتة

إنّ سنن الله تعالى وقوانينه ثابتة وشاملة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ **[فاطر: 43]**.

ولأنّ العلم يُبصرنا في آيات الله في الكون وبنظامه البديع وحياة الإنسان فيه، فإنّ اكتشاف السنن الاجتماعية والتاريخية وقوانين الحياة الثابتة التي لا تعرف التبديل هو ما يساعد الإنسان على معرفتها والتكيف معها، وتوظيفها في الأخذ بالأسباب وعمارة الأرض وتشييد الحضارة.

إنّ أهمية السنن التاريخية جعلت القرآن الكريم ينبه المسلمين إلى أهمية التعرف عليها بعرضه لقصص الأمم السابقة ومراحل نشأة الحضارة الإنسانية وتطورها، وسِيَر أولي العزم وقادة الحضارة الإنسانية العِظام، للإفادة منها في الاعتبار، وبناء الحضارة، وكيفية المحافظة عليها من السقوط.

فمن خلال السنن الإلهية في كتاب الله تعالى وسُّنة نبيه المصطفى (صلى الله عليه وسلم) نفهم التاريخ، ونُفسّر أحداثه تفسيراً نافعاً، ونتعرف على عوامل البناء والأمن والاستقرار والصحة والرفاهية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ **[الأعراف: 96]**.

كما نتعرف على عوامل الهدم والخوف والجوع والمرض، ونجده في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ **[الأنفال: 53]**؛ فتبدل الأحوال الذي يحدثه الله – عز وجل – في المجتمع من الصحة إلى السقم، ومن الغنى إلى الفقر، ومن الأمن إلى الخوف، ومن العزة إلى الذلة، إنما هو مرتبط بإرادة الناس وسلوكهم وأفعالهم السلبية المخالفة لما أمر الله – تعالى –به[1].

وإذا ما تمعنَّا في مراحل نشأة وازدهار الدولة العثمانية وسقوطها، فإننا نجد أنّ قراءة العلامة عبد الرحمن بن خلدون في التغيير والتبدل وأعمار الدول والحضارات، قد مرت به الدولة العثمانية تدريجياً، فابن خلدون يعتبر أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص، وتمرّ الدولة في نظر ابن خلدون في خمس مراحل:

---

[1] محمد أمحزون، علم السنن وأهميته في الآفاق والأنفس، مجلة البيان، المكتبة الشاملة الحديثة، 1425هـ، ص 25.

الأولى: تنشأ الدولة على أنقاض دولة سابقة لها، وفي المرحلة الثانية: ينفرد صاحب السلطان بالحكم بعد أن يكون قد تخلَّص ممن اشتركوا معه في تأسيس الدولة، وفي المرحلة الثالثة: تزدهر الدولة وتسود الدعة والسكينة، وفي المرحلة الرابعة: تتحول الراحة والطمأنينة إلى قناعة وسكون ومسالمة، وتأتي المرحلة الخامسة تتمة للمرحلة السابقة ونتيجة لها حيث تفقد الدولة هيبتها فتتحلل وتزول، فابن خلدون يعتبر بأن التمدن غاية البداوة[1].

وإنّ الدولة العثمانية عاشت مراحل من القوة والازدهار والتوسع كأكثر دولة حكمت المسلمين، ولكن دخلتها الأمراض والعلل والآفات الأخلاقية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية، والتي ذكرناها سابقاً من الترف والانحراف عن القيم الإيمانية في آخر عهدها، وانتشار الخرافات والبدع والتيارات المنحرفة المحسوبة على الإسلام، وغياب القيادة الربانية، وهي

---

[1] خالد طحطح، دورة الحضارة عند ابن خلدون، مجلة حراء، العدد 64، 2019/9/12م، رابط: https://2u.pw/tiXWf

عوامل مؤذنة بخراب العمران. ففي الدولة العثمانية، بلغ الترف غايته ففسدت الأخلاق والطبائع، وتحول التعاضد إلى تخاذل وعداوة، وهو ما أدى في نهاية المطاف لسقوط الدولة[1]، وهذا ما جاء ذكره في سورة الإسراء في قوله تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا). وذكر ابن خلدون بأنّ الدول كالأفراد إذا نزل الهرم بها لا يرتفع، وهذا من الأمور الطبيعية، والأمور الطبيعية لا تتبدل[2].

ثانياً: التنافس بين الإمبراطوريات وهزائم الدولة العثمانية:

أدّى النظام الاقتصادي العالمي الذي كان قد بدأ بالتبلور في نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي إلى سوء الأوضاع الاقتصادية في الدولة العثمانية، إذ لعبت سيطرة الدول الأوروبية بأساطيلها الحديثة على الممرات والطرق التجارية البحرية إضافة إلى سيطرتها على السواحل الشرقية لإفريقيا وسواحل عُمان

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، 1/ 331 – 334.

[2] ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، 486/1.

وبعض موانئ الخليج العربي وضربها للأساطيل التجارية العثمانية في المحيط الهندي وبحر العرب دوراً مهماً في تدفق الثروة إليها وإفقار الدولة العثمانية. ولم تكن الطرق التجارية البرية بحال أفضل خاصة أنها كانت تمرّ بمناطق لطالما عصفت بها الحروب والثورات، وهددت سُبلَها قلةُ الأمن وغياب الاستقرار، وانتشار الفوضى والقرصنة البحرية وقطّاع الطرق البريّة.

لقد أسهمت مطامع القوى الأوروبيّة في تسريع سقوط الدولة العثمانية، حيث تلقت الدولة العثمانية عدة هزائم أمام روسيا القيصرية في مرحلة صراعهما على مضائق البوسفور والدردنيل، حيث كانت روسيا القيصرية تسعى للوصول إلى البحار الدافئة التي لا تتجمد مياهها في الشتاء[1]، وحدثت أخطر المعارك الروسيّة التركيّة في شهر محرم 1295هـ/ يناير 1877م، عندما اقتربت القوات الروسية من مشارف مدينة إستانبول، وأُجبرتْ الدولة العثمانية على توقيع معاهدة سان ستيفانو في 28 صفر

(1) فريق ساسة بوست، صراع بسط النفوذ... تاريخ المعارك الدامية بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية، موقع ساسة بوست، 2020/3/4م، رابط: https://2u.pw/wbP2t

1295هـ/ 3 مارس 1877م[1]، وكانت من أكثر المعاهدات ضرراً بالدولة العثمانية، فقدت فيها أراضي من ولاياتها في البلقان في بلغاريا والصرب والجبل الأسود[2].

وقد سعت كلٌّ من روسيا والنمسا لدعم القوميين المتمردين في البلقان لتعزيز نفوذهما هناك، كما حرص البريطانيون والفرنسيون على اقتطاع الأراضي التي تسيطر عليها الدولة العثمانية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا[3].

ويعتقد المؤرخ المصري في جامعة كورنيل الأمريكية مصطفى ميناوي بأن الدولة العثمانية كانت لديها القدرة على التطور

---

(1) سان ستيفانو: بلدة صغيرة على ساحل بحر مرمرة، وتبعد عدة كليو مترات من إستانبول.

(2) انظر: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، بيروت، دار النفائس، ط1 1981م، ص. ص 587 – 647. وراجع: السلطان عبد الحميد الثاني، محمد حرب، دمشق، دار القلم، ط1 1990م، ص. ص 140 – 146.

(3) الجزيرة نت، ستة أسباب أدت إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، 2020/3/8م، رابط: https://2u.pw/d9O4W

والاستمرار إلى دولة فيدرالية متعددة الأعراق واللغات[1]. ولكن بدلاً من ذلك أدت الحرب العالمية الأولى إلى تفكك الإمبراطورية؛ لأن "الإمبراطورية العثمانية انحازت إلى الجانب الخاسر". وأشار ميناوي إلى أن الحرب عندما انتهت، "قرر المنتصرون تقسيم أراضي الإمبراطورية العثمانية فيما بينهم"[2]. وفي أكتوبر 1918، وقّع العثمانيون هدنة مع بريطانيا العظمى، وخرجوا من الحرب[3].

لقد انتهت الهزيمة العثمانية في الحرب العالمية الأولى والانسحاب العثماني من معظم الأقاليم التي كانت تابعة للباب العالي، بسلسلة معاهدات بين الدولة المنتصرة بالحرب وتركيا، ومنها معاهدة لوزان، وهي معاهدة سلام وُقعت في مدينة لوزان

---

(1) الجزيرة نت، ستة أسباب أدت إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، المرجع السابق، رابط: https://2u.pw/d9O4W

(2) الجزيرة نت، ستة أسباب أدت إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، المرجع السابق، 2020/3/8م، رابط: https://2u.pw/d9O4W

(3) الجزيرة نت، ستة أسباب أدت إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، المرجع السابق، 2020/3/8م، رابط: https://2u.pw/d9O4W

السويسرية في الرابع والعشرين من شهر يوليو 1923م بين الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الأولى وفي مقدمتهم بريطانيا وفرنسا من جهة، وتركيا من جهة أخرى، وتنازلت بموجبها الدولة العثمانية عن أراضي واسعة، وتم تحديد حدود تركيا مقابل علاقات صداقة وتجارة واحترام استقلال وسيادة الدول بعد الحرب[1].

---

[1] عادل رفيق، النص الكامل لمعاهدة لوزان 1923، المعهد المصري للدراسات، 2020/8/17م، رابط: https://2u.pw/sj0VK

المبحث السادس: تداعيات انهيار الدولة العثمانية:

ترتَّب عن سقوط الدولة العثمانية التي كانت دولة مركزيّة لها سلطان واحد وعاصمة واحدة وآخر دولة إسلامية جامعة للمسلمين، آثاراً وتداعيات كارثيّة وخطيرة، ويمكن أن نجملها في مجموعة من النقاط، وهي:

- انتقلت الدول الغربية من سياسة التغلغل السلمي والمصالح الاقتصادية والقنصلية وسياسة الامتيازات وحماية الأقليات داخل السلطنة العثمانية في عهود السلاطين العثمانيين الأواخر إلى سياسة الهيمنة المباشرة، والتدخل في كل شاردة وواردة بعد الانقلاب عام 1908م، واستلام سلاطين ضعفاء مما جعل الاتحاديين يتحكمون في القرار السيادي، وفرضوا النمط التركي في الإدارة مما جعل القوميات والاثنيات داخل الدولة تتجه نحو الانفصال والتمرد والثورة عبر أحزاب أو تشكيلات سياسية في البلقان وبيروت، ومصر والشام وباريس.

- بعد الحرب العالمية الأولى، وقعت اتفاقية سان ريمو (1339هـ/ 1920م)، التي تشبه اتفاقية سايكس بيكو، وقسمت الأقاليم العربية بين كل من فرنسا وبريطانيا إلى مناطق انتداب فرنسية وبريطانية، وفرض الانتداب الإنجليزي على العراق، وشرقي الأردن، وفلسطين، كما سيطرت فرنسا على سورية ولبنان على شكل انتداب، وطرد فيصل من سوريا بعد معركة ميسلون 1920م. وفي مؤتمر القاهرة عين فيصل المخلوع عن عرش سورية ملكاً على العراق، وعيّن عبد الله أميرًا على شرقي الأردن، واستبدل الانتداب في كل من البلدين إلى معاهدة تحالف[1]. وبالتالي، فرضت الدولتان سيطرة كاملة عبر مناديب عسكريين يتم تعيينهم من باريس ولندن.

- سادت النزعة العنصرية الطورانية (التركية) على حساب الرابطة القِيميّة والروحيّة العثمانيّة، وبعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني عام 1900م، تحولت الفكرة القومية من كونها مجموعة من

---

[1] إسماعيل أحمد ياغي، الرياض، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، 1995م، 244ص. وانظر: علي عفيفي علي غازي، تداعيات الحرب العالمية الأولى على الشرق الأوسط، مركز طروس لدراسات الشرق الأوسط، الكويت، 2019/8/9م، رابط: https://torouscenter.com/56

الدعوات لبعض الأدباء والمثقفين الذين يحلُمون بوطن مثالي إلى سياسة ينتهجها أغلب سياسيي الصف الأول في الدولة بعد عهد السلطان عبد الحميد تحديداً، فكان لهذا النشاط القومي الكثيف دوراً في تحدي المبدأ الذي تأسست عليها الدولة العثمانية وهو تساوي الشعوب المتآلفة بالإسلام داخل السلطنة، وذلك بعد مناداة القوميين الجدد بسيادة جنس على باقي الأجناس وأهمية تتريك القوميات غير التركية[1]. وبدأت المطالبات بالحقوق القومية والمواطنة العادلة من قبل القوميات الأخرى غير التركية[2]. وكان للهزائم العثمانية أمام الحلفاء في الحرب، وإعلان قيام الثورة العربية في الحجاز بمساعدة الإنجليزية أثار نقمة في صفوف الأتراك، وقد تضاعفت وظهرت بشكل طورانية متطرفة[3]، قد كان له آثار سلبية على التفكك الداخلي وصدام العناصر المتآلفة وكان سبباً

---

[1] قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية؛ قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، بيروت، الدار العربية للعلوم، ط2 2003م، ص 141.

[2] العزاوي، الدولة العثمانية؛ قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، مرجع سابق، ص 142.

[3] العزاوي، الدولة العثمانية؛ قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، مرجع سابق، ص 148.

للانهيار، مما ترك نتائج مستقبلية سلبية على العلاقة بين الدولة التركية وجيرانها في أوروبا الشرقية والمنطقة العربية.

- تم تفكيك الدولة العثمانية، وانتهت دولتها عام 1922م، وذلك عندما أُسقِط آخر السلاطين العثمانيين محمد السادس، بعد عزله ومغادرته العاصمة العثمانية (إستانبول) على متن سفينة حربية بريطانية، وهكذا نشأت الدولة التركية الحديثة على أنقاض الدولة العثمانية.

- خسرت الشعوب الإسلاميّة الرابطة الروحية والعُصبة العثمانية الجامعة، وغدت لقمة سائغة للقوى الأجنبية الطامعة، فاستعمرتها وغزتها ثقافياً وعسكرياً واقتصاديّاً، وتحوّلت البلاد العثمانيّة وحتى إستانبول نفسها إلى مناطق تحت وصايات واحتلالات غربية، فُرضت عليها باتفاقيات ومعاهدات شرعنت لها عصبة الأمم المتحدة، بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة العثمانيين فيها.

- فقدت الأمّة الإسلاميّة بعد سقوط الدولة العثمانيّة، قُدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها، وظهرت فيها علامات

الضعف والتفكك والانهيار، وعانت من أزمات سياسية واجتماعية ودستوريّة وفكريّة واقتصاديّة مستمرة حتى يومنا هذا، ولعلّ السبب الأبرز هو الابتعاد عن شرع الله والأخذِ بأسباب التمكين والتكليف الإلهي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ **[الأعراف:96]**.

– أمّا التداعيات على الواقع التركي الداخلي، فبعد توقيع معاهدة لوزان وانسحاب الحلفاء الأوروبيين من إستانبول، وعودة السيادة التركية على الأراضي التي تشتمل عليها تركيا الحالية، أصدر المجلس الوطني التركي قراراً نص على أن تكون أنقرة عاصمة للدولة بدلاً من إستانبول، وصدر قرار آخر بإعلان تركيا دولة جمهورية وتبع ذلك إلغاء الخلافة بعد عام 1343هـ، 1924م، وتولاها مصطفى كمال واختير عصمت إينونو رئيساً لوزرائه، وصدر في الوقت نفسه أمر إلى السلطان عبد المجيد بمغادرة البلاد، وهذا كله ضمن بنود معاهدة لوزان مع الإنجليز[1]. وبذلك غدت

---

[1] ياغي، الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص 231.

الدولة التي كانت توحد المسلمين تحت راية الخلافة الإسلامية وأعظم دولة إسلامية شهدتها الأمة، وكانت خير بوتقة لصهرها، دولةً محدودة القوة والتأثير.

- بعد تلك الإجراءات التركية الخاصة، ألغى مصطفى كمال القانون الإسلامي والحروف العربية واستبدلها بالحروف اللاتينية وتبنى التقويم الميلادي، وترجم القرآن للغة التركية، ومنع الحجاب، وجعل لباس العلماء خاصاً بالمساجد، ولباسهم الخارجي هو لباس أجنبي، وضمت أملاك الوقف للدولة الجديدة، وألغيت وظيفة شيخ الإسلام، وجرى نقل الإشراف على المدارس الدينية إلى إدارة التعليم المدني، وألغيت المحاكم الشرعية، وأصبح الأذان باللغة التركية، وفي عام 1928م ألغي نص الدستور الذي يجعل الإسلام ديناً للدولة، ووجه الضربة للنظام الملي حين أصبح رعايا الدولة متساوين أمام القانون[1].

- ومن نتائج انهيار الدولة العثمانية على مستوى تركيا، فرض نظام الحزب الواحد بطابعه العلماني وتركيز السلطة وسمى أتاتورك نفسه أبا الترك، وألغى الألقاب القديمة، ومنح المرأة حق الترشح

---

[1] ياغي، الدولة العثمانية، مرجع سابق، 232 – 233.

والانتخاب، وفرض الزي الغربي، وبذلك ألغى مصطفى كمال الخلافة العثمانية لتحل محلها دولة تركيا العلمانية[1].

- ظهور أكذوبة المذابح التركية بحق الأرمن، وسميت في الأدبيات الغربية باسم المشكلة الأرمنية وما هي إلا محاولة غربيّة هدفها زيادة إضعاف الدّولة العثمانيّة ومعاونة القوى الانفصاليّة فيها، لكي يسهل عليهم استعمار الأقاليم التي كانت ضمن الدولة العثمانيّة، وبعد ذلك حاولوا زيادة الضغط من خلال إدعائهم بأنّ الأرمن قد ذبحوا على يد الأتراك، والوثائق تكذب ذلك من خلال تبوؤ الكثير من الأرمن مراكز متقدمة في الدولة، وكانوا كغيرهم من رعايا الدولة الآخرين ولم يحصل لهم أي تطهير عرقي[2]، وبقيت هذه حجّة الغرب التي يحاولوا من خلالها إحياء الكراهية بين تركيا والأرمن المنتشرين في أرمينيا أو العالم.

---

[1] ياغي الدولة العثمانية، مرجع سابق، 233.

[2] أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة (303 سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية)، إستانبول، وقف البحوث العثمانية، 2008م، ص 767 – 768.

- رغم أنّ السلطان عبد الحميد الثاني رفض جميع الاغراءات الصهيونية التي عرضها عليه هرتزل رغم الضائقة المالية التي كانت تمرّ بها الدّولة العثمانيّة مع حفاظه على فلسطين[1]، ولكنّ الصهاينة خلال الحرب العالميّة الأولى نجحوا في انتزاع وعد وزير المستعمرات البريطانيّة اللورد بلفور بمنحهم وطناً قومياً في فلسطين عام 1917م.

- انفصال الدول القوميّة في أوروبا الشرقيّة، حيث عملت القوى الأوروبيّة (إنجلترا واليونان وفرنسا وروسيا) على تصفية الوجود العثماني من أراضيها، وقد جمعت بينها وحدة الهدف في الانتصار للمسيحية والقضاء على الإسلام، فكانت التحالفات الأوروبية ضد الوجود العثماني تاريخياً، روحاً صليبيّة ضد الإسلام؛ لأنهم يعتبرون الدولة العثمانيّة تتمتع برمزية روحيّة؛ هي العقيدة الإسلامية، وتحت شعارات حملها الأوروبيون ضد إستانبول "رجل أوروبا المريض" و"المريض الذي لا يُرجى شفاؤه"[2]، استمرت التحالفات والمآمرات الأوروبيّة لانتزاع شرق أوروبا "بلغاريا والمجر

[1] ياغي، الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص249.

[2] ياغي، الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص 251 – 252.

والجبل الأسود وألبانيا وصربيا والبوسنة والهرسك ورومانيا" التي كان قسم من سكانها قد أسلموا مع الفتح العثمانيّ، ولكن خضعت في نهاية العهد العثماني للدّول المنتصرة التي منحت سكانها والقوميين فيها دولاً مستقلة عن الدولة العثمانيّة.

– انقسم

العالم الإسلامي بعد سقوط الدولة العثمانية إلى دول لا يربط بينها رابط سياسيّ ولا قانونيّ ولا أمنيّ، وبعد أن كانت الدولة العثمانيّة تمتد على مساحة عشرين مليون كيلو متر مربع تقسمت لأكثر من 35 دولة[1]. وطبّق المستعمرون مشروعاتهم السياسيّة والفكريّة والعسكريّة والاقتصاديّة في إقصاء الشريعة الإسلامية عن تنظيم حركة الحياة، وإحلال المفاهيم العلمانية والنعرات الوطنية والقومية بدلاً عنها، وكذلك تفتيت الدول إلى دويلات، والاستغلال المادي لموارد هذه الدول عن طريق نهبها واستخدام هذه الدول كأسواق لبضائعها، وتكريس الضعف والفقر والتخلف في أنحائها[2].

---

[1] كوندوز، وأوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة، ص 767.

[2] المصدر السابق، ص 768.

الخاتمة:

ممّا مرّ معنا يتبين أنّ أسباب سقوط الدَّولة العثمانيَّة كثيرةٌ، جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى، ممّا جلب للأفراد، والأمَّة تعاسةً، وضنكاً في الدُّنيا، وإِنَّ آثار الابتعاد عن شرع الله ظهرت في وجهتها الدِّينيَّة، والاجتماعيَّة، والسَّياسيَّة، والاقتصاديَّة.

وبعد أن عرضنا أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة العثمانية يمكن أن نلخصها بالآتي:

1 . انحراف الأمة عن المفاهيم الصحيحة للدين:

لقد أصيبت الأمَّة بانحرافٍ شديدٍ في مفاهيم دينها، كعقيدة الولاء، والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشرت مظاهر الشِّرْك، والبدع، والخرافات.

وإِنّ انحراف سلاطين الدَّولة العثمانيَّة المتأخِّرين عن شرع الله، وتفريط الشُّعوب الإِسلاميَّة الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر أثَّر في تلك الشُّعوب، وكثرت الاعتداءات

الداخليَّة بين الناس، وتعرَّضت النُّفوس للهلاك، والأموال للنَّهب، والأراضي للاغتصاب بسبب تعطُّل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروبٌ، وفتنٌ، وبلايا توَّلدت على أثرها عداوةٌ، وبغضاء لم تزل عنهم حتَّى بعد زوالهم.

2 . مقارفة المعاصي وتفشيها في المجتمع:

إِنَّ من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق التَّاريخ: أنَّه إِذا عُصي الله تعالى ممَّن يعرفونه؛ سلَّط الله عليهم من لا يعرفونه، ولذلك سلَّط النَّصارى على المسلمين، وغاب النَّصر عن الأمَّة، وحُرمت من التَّمكين، وأصبحت في فزعٍ، وخوفٍ، وتوالت عليها المصائب، وضاعت الدِّيار، وتسلَّط الكفار.

3 . ظهور الأفكار المنحرفة:

إِنَّ من أعظم الانحرافات التي وقعت في تاريخ الأمَّة الإِسلاميَّة ظهور التيارات المنحرفة المحسوبة على الإسلام زوراً، كقوَّةٍ منظَّمةٍ في المجتمع الإِسلامي، تحمل عقائد، وأفكاراً، وعباداتٍ بعيدةً عن

كتاب الله، وسنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد قوي عود الفرق والتّيارات المنحرفة، واشتدَّت شوكتُها في أواخر العصر العثمانيّ.

4 . غياب القيادة الربانية وظهور علماء السلطان:

أصبح كثيرٌ من العلماء ألعوبةً بيد الحكَّام الجائرين، وتسابقوا للحصول على الوظائف، والمراتب، وغاب دورهم المطلوب منهم، وكان من الطَّبيعي أن تصاب العلوم الدِّينيَّة في نهاية الدَّولة العثمانيَّة بالجمود والتحجُّر، واهتمَّ العلماء بالمختصرات، والشُّروح، والحواشي، والتقريرات، وتباعدوا عن روح الإسلام الحقيقيَّة المستمدَّة من كتاب الله، وسنة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، ورفض كثيرٌ من العلماء فتح باب الاجتهاد، وأصبحت الدَّعوة لفتح بابه تهمةً كبيرةً تصل إلى الرَّمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلِّدين، والجامدين إلى حدِّ الكفر.

5 . انتشار الظلم وظهور الاستبداد:

انتشر الظُّلم في الدولة العثمانيَّة، والظُّلمُ كالمرض في الإِنسان يعجِّل بموته بعد أن يقضي المدَّة المقدَّرة له؛ وهو مريضٌ، وبانتهاء هذه المدة يحين أجلُ موته، فكذلك الظلمُ في الأمة يُعجِّل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمِّرةٍ تؤدِّي إِلى هلاكها، واضمحلالها خلال مدَّةٍ معيَّنةٍ يعلمها الله، هي الأجل المقدَّر لها، ولذلك زالت الدَّولة العثمانيَّة من الوجود، وكذلك ممَّا يعجِّل بزوال الدُّول انْغماسُها في الشَّهوات، والتَّرف، وشدَّة الاختلاف، والتَّفرُّق.

ومن الدروس والعِبر التي نستفيدها مما تقدم:

- ترتَّب عن سقوط الدولة العثمانية التي هي نتيجة لابتعاد الأمَّة عن شرع ربِّها آثار خطيرةٌ، كالضَّعف السِّياسيِّ، والحربيِّ، والاقتصاديِّ، والعلميِّ، والأخلاقيِّ، والاجتماعيِّ. وفقدت الأمّة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها، فاستُعمرت، وغُزيت فكريّاً، نتيجة لفقدها شروطَ التَّمكين، وابتعادها عن أسبابه المادِّيَّة، والمعنويَّة، وجهلها بسنن الله في نهوض الأمم، وسقوطها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ **[الأعراف:96]**.

- سنن الله – تعالى – تتسم بالثبات والشمول والصراحة؛ فلا تحابي فرداً على حساب فرد، ولا مجتمعاً على حساب مجتمع آخر؛ فالنتائج التي قد يتطلّع إليها على وجه الأرض أكثر المؤمنين إيماناً وأشدهم ورعاً وتقوى سوف يجنيها أكثر الكافرين كفراً وأشدهم فسقاً وفجوراً وعتوّاً، إذا وافق المقدمات الصحيحة المؤدية إليها، وربَط الأسباب بمسبباتها[1].

- إنّ الدّولة العثمانيّة كأيّ دولة من الدول تزدهر ويعلو شأنها بأخذها بأسباب التّقدم والنّجاح وتخبو شعلتها إذا ألمت بها أدواء التخلف وعوامل الانحطاط. وإنَّ اندفاعنا لإلقاء اللّوم والعتاب

---

[1] محمد الجريتلي، السنن الإلهية وأثرها في فهم الواقع، موقع الألوكة، 2011/12/24م، رابط: https://2u.pw/NfQgc

على سلاطينها وتحميل قادتها مسؤوليّة التّخلف الّذي نعانيه اليوم، أو المبالغة في مدحهم وإطرائهم لن يأتي علينا بأي فائدة تذكر[1].

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ **[الحشر:10]**.

«سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك»

«وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين»

رابط أصل الكتاب بصيغة PDF

[1] خالد محفوض، ما هي العوامل التي أدت لانهيار الدولة العثمانية؟، مدونات الجزيرة، الدوحة، 2019/9/29م، رابط: https://2u.pw/fUlzv

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.

2. أبو الحسن مسلم بن الحجَّاج القشيري النَّيسابوري، صحيح مسلم، دار الحديث، القاهرة، الطَّبعة الأولى 1412هـ/1991م.

3. أبو عيسى التِّرمذي، سنن التِّرمذي، تحقيق أحمد شاكر، مصطفى الحلبي، القاهرة.

4. أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة (303 سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية)، إستانبول، وقف البحوث العثمانية، 2008م.

5. أحمد معمور العسيري، موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر، مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى، 1417هـ.

6. إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الرياض، مكتبة العبيكان، 1995م.

7. باول سمتز، الإِسلام قوَّة الغد العالميَّة.

8. جلال العالم، قادة الغرب يقولون.

9. د. محمد البحراوي، حركة الإِصلاح في عصر السُّلطان محمود الثَّاني، دار التُّراث، القاهرة، الطَّبعة الأولى 1398هـ/1978م، ص (214). وهذه الحرِّيَّة الَّتي نعموا بها استغلُّوها في التآمر على الدَّولة وعلى المسلمين.

10. حسين مؤنس، الشَّرق الإِسلامي في العصر الحديث، مطبعة حجازي، القاهرة، الطَّبعة الثَّانية، 1938م.

11. خالد طحطح، دورة الحضارة عند ابن خلدون، مجلة حراء، العدد 64، 2019/9/12م.

12. د. أحمد سعدان حمدان، عقيدة ختم النُّبوَّة المحمَّدية، دار طيبة، الرِّياض، الطَّبعة الأولى، 1405هـ/1985م.

13. د. إِسماعيل ياغي، العالم العربي في التَّاريخ الحديث.

14. د. توفيق الطَّويل. التَّصوُّف في مصر إِبَّان العصر العثماني، مطبعة الاعتماد بمصر، 1365هـ/1946م.

15. د. زكريَّا سليمان بيُّومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين، الطَّبعة الأولى 1411هـ/1991م، عالم المعرفة.

16. د. عبد العزيز العمري، الفتوح الإِسلاميَّة عبر العصور، دار إِشبيلية، الرِّياض، الطَّبعة الأولى، 1418هـ/1997م.

17. د. عبد الكريم الخطيب، سد باب الاجتهاد وما ترتَّب عليه.

18. د. عبد اللَّطيف عبد الله دهيش، قيام الدَّولة العثمانيَّة، الطَّبعة الثَّانية، 1416هـ/1995م، مكتبة ومطبعة النَّهضة الحديثة، مكَّة المكرَّمة.

19. د. عثمان عبد المنعم، عقيدة ختم النُّبوَّة بالنُّبوَّة المحمَّدية، مكتبة الأزهر 1978م.

20. د. عمَّار الطَّالبي، ابن باديس حياته، وآثاره: دار الغرب الإِسلامي، بيروت الطَّبعة الثَّانية 1403هـ/1983م.

21. د. محمَّد حرب، العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، الطَّبعة الأولى 1409هـ/1989م.

22. سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق، عزَّت عبيد الدَّعاس، حمص، النَّاشر: محمَّد السَّيد.

23. سيِّد قطب، في ظلال القرآن الكريم، دار الشُّروق.

24. عادل رفيق، النص الكامل لمعاهدة لوزان 1923، المعهد المصري للدراسات، 2020/8/17م.

25. عبد الحليم ابن تيمية، رسالة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

26. عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التَّراجم، والأخبار، دار فاس– بيروت، (478/3).

27. عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دمشق، دار يعرب، ط1 2004م.

28. عبد الكريم زيدان، السُّنن الإِلهيَّة في الأمم، والجماعات، والأفراد.

29. علي بن نجيب الزَّهراني، الانحرافات العقديَّة، والعلميَّة في القرنين الثَّالث عشر، والرَّابع عشر الهجريِّين، وآثارهما في حياة الأمَّة، دار طيبة مكَّة، دار آل عمَّار، الشَّارقة، الطَّبعة الثَّانية، 1418هـ/1998م.

30. علي عفيفي علي غازي، تداعيات الحرب العالمية الأولى على الشرق الأوسط، مركز طروس لدراسات الشرق الأوسط، الكويت، 2019/8/9م.

31. علي محمَّد الصَّلابي، دولة الموحِّدين، دار البيارق، عمَّان ـ الأردن، 1998م، الطبعة الأولى.

32. قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية؛ قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، بيروت، الدار العربية للعلوم، ط2 2003م.

33. مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسَّرة للأديان.

34. محمَّد المبارك، المجتمع الإِسلاميُّ المعاصر، دار الفكر، بيروت، ط 1390هـ/1971م.

35. محمَّد المجذوب، مشكلات الجيل في ضوء الإِسلام، ط 1390هـ.

36. محمد أمحزون، علم السنن وأهميته في الآفاق والأنفس، مجلة البيان، المكتبة الشاملة الحديثة، 1425هـ.

37. محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، دار طوق النجاة بيروت مصورة عن الطبعة السلطانية، 1422هـ.

38. محمَّد بن حسن بن عقيل موسى، المختار المصون من أعلام القرون، دار الأندلس الخضراء للنَّشر والتَّوزيع، جدَّة، الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م.
39. محمَّد بن حسن بن عقيل موسى، المختار المصون من أعلام القرون، دار الأندلس الخضراء للنَّشر والتَّوزيع، جدَّة، الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م.
40. محمد بن علي الشَّوكاني، البدر الطَّالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السَّابع، دار المعرفة، بيروت، (86/1).

41. محمد بن ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1420هـ.

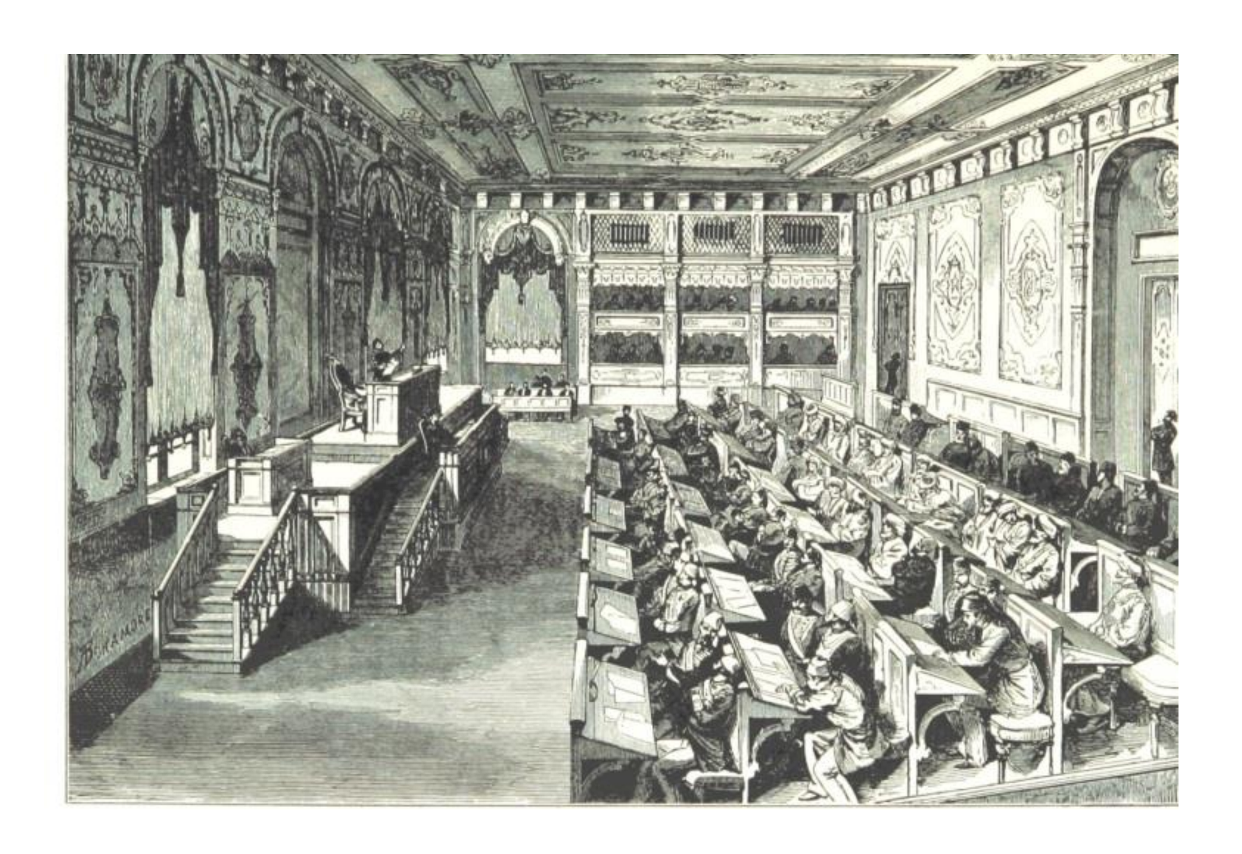
42. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، بيروت، دار النفائس، ط1 1981م.

43. محمد قطب، مفاهيم يجب أن تصحَّح، دار الشُّروق، القاهرة، الطَّبعة السَّابعة، 1412هـ/1922م.

44. محمَّد قطب، واقعنا المعاصر، الطَّبعة الثَّانية، 1408هـ/1988م، مؤسَّسة المدينة المنوَّرة.

45. محمَّد كرد علي، خطط الشَّام، دار العلم للملايين، بيروت.

صورة محفوظة في المكتبة البريطانية من البرلمان العثماني في عهد التنظيمات عام 1877 (ويكي كومنز)



كتب صدرت للمؤلف:

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القران الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القران الكريم.
13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.

17. عصر الدولة الزنكية.

18. عماد الدين زنكي.

19. نور الدين زنكي.

20. دولة السلاجقة.

21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23. الشيخ عمر المختار.

24. عبد الملك بن مروان وبنوه.

25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27. وسطية القران في العقائد.

28. فتنة مقتل عثمان.

29. السلطان عبد الحميد الثاني.

30. دولة المرابطين.

31. دولة الموحدين.

32. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33. الدولة الفاطمية.

34.حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35.صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36.استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37.الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38.الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39.المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40.سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41.الشورى في الإسلام.

42.الإيمان بالله جل جلاله.

43.الإيمان باليوم الآخر.

44.الإيمان بالقدر.

45.الإيمان بالرسل والرسالات.

46.الإيمان بالملائكة.

47.الإيمان بالقران والكتب السماوية.

48. السلطان محمد الفاتح.

49. المعجزة الخالدة.

50. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

51. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52. التداول على السلطة التنفيذية.

53. الشورى فريضة إسلامية.

54. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57. العدل في التصور الإسلامي.

58. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59. الأمير عبد القادر الجزائري.

60. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

61. سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

62. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

63.أعلام التصوف السُني "ثمانية أجزاء".

64.المشروع الوطني للسلام والمصالحة

65.الجمهورية الطرابلسية (1918 – 1922) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر

66.الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

67.المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام -الحقيقة الكاملة-.

68.قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام

69.نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

70.إبراهيمُ خليل الله عليه السّلام "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".

71.- موسى عليه السلام والخضر .

72.- موسى عليه السلام في سورة طه .

73.- موسى عليه السلام في سورة القصص .

74.- موسى عليه السلام في سورة الشعراء .

75.- مؤمن آل فرعون في سورة غافر.

المؤلف في سطور



د. عليّ محمّد محمّد الصّلّابي

مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

  - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث .
  - سير الخلفاء الراشدين .
  - الدولة الحديثة المسلمة .

- الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط .
- فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.
- وسطية القرآن الكريم في العقائد.
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
- تاريخ كفاح الشعب الجزائري.
- العدالة والمصالحة الوطنية .
- الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
- المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الحقيقة الكاملة.
- قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام
- نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
- إبراهيمُ خليل الله عليه السّلام "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".
- – موسى عليه السلام.

الفهرس